ليلى العثمان

الحب له صور

دار الشروق


الحبُّ لهُ صُوَرْ

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا: شروق
تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت: ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق
تلكس SHOROK 20175 LE

SHOROUK INTERNATIONAL 316/318 REGENT ST . LONDON W1. UK TEL 6372743/4

ليلى العثمان

الحبُّ لهُ صوَرْ

دار الشروق

نظـرة لـهـا أصـابـع

هزّه فى صمت الليل شيء فانتفض كملدوغ .. استقام فى فراشه ، جالت عيناه فى الظلام المطبق على المكان فلم ير شيئاً .. تحسس جسده فلم يجد مايشير إلى اعتداءٍ ما .. من حشرة ! أو حيوان كتلك القطط التى تقفز على نافذته كل مساء .

عاد وأرخى جسده الناعس على الفراش ، وّنحين استقر رأسه على الوسادة تطّلع إلى الأرض حوله .. حدّق مستعيناً بكل طاقة عينيه ليصدق ما يرى .. فى البداية حسب النعاس يتلاعب بنظره فيصور لهُ المشهد ، لكن الأمر صار واضحاً حين امتدت يده إلى الستارة المنسدلة على النافذة التى يقبع سريره تحتها ، سحب طرفها فتسللت أنامل رفيعة من الضوء ، ووضحت أمامه الرؤية ..

هاهو «نعاله» القديم، يتحرك.. يتحرك ثم يرتفع.. يرتفع.. يقترب منه.. يقترب .. وقبل أن يغمض عينيه ، كان « النعال » يهوى على وجهه بكل عنف . و .. غاب عن الوعى . .

فى الصباح ، لم يكن يتذكر شيئاً ، وكأن حُلماً عاديا قد مرّ به كباقى الأحلام ، لكنه حين نظر إلى المرآة ليحلق ذقنه ، لمح بقعة زرقاء على صدغه فتذكر ماحدث فى الليل ، فقرر بينه وبين نفسه أن يترك « نعاله » كل ليلة داخل الحمام .

مشى حافياً .. لسعت قدميه برودة البلاط ، لكنه احتملها ، فهى أرحم كثير مما قد يحدث لو أنه صحب « النعال » فى قدمه .

اندس فى فراشه متثائباً .. مرتاحاً .. وكوّم الغطاء الصوفى على جسده وتذكر شيئاً .. فسحب اللحاف حتى ستر به كل وجهه العريض ـ وكان يكره هذه الطريقة ـ ثم استسلم للنوم .

فجأة !

صحا على صوت باب يصطفق .. تذكر أنه لم يوصد باب الحمام .. لعن غباءه .. وما ان تهيأ للنهوض .. حتى رآه فى العتمة آتياً كوجه بومة .. مسرعاً نحوه ...

هو ...

نعاله ! يطير إليه .

هرب إلى الفراش ثانيةً .. سحب اللحاف .. قبل أن يتمكن من إخفاء وجهه . كان « النعال » قد صفعه بجدة . و .. ارتجف حتى الإغماء .

لا وسيلة إلاّ الهرب !

قرر .. ألاّ ينام فى بيته ، ذهب إلى صديق يكره فيه برودة أعصابه ... فكّر أن يحكى له الحكاية ، لكنه كان متأكداً من أن هذا الصديق البارد سينفجر كالبارود بضحك متواصل ويؤكد له بأنه مجنون !

كتم أمره داخل صدره ، واختلق حجة لصديقه :

ـ أضعتُ مفتاح البيت .. قلت لمن ألجأ فى هذا الليل الموحش .. فلم أجد إلاّ بابك ..

رحب به الصديق ببروده المعتاد :

ـ البيت بيتك .

وانشقت قناة راحة .. الليلة سينام نوماً وردياً .... بعد ليلتين متواصلتين
خ « نعاله » فيهما وجهه ، وعبأ نفسه قلقاً لايُحتمل .
ى غرفة صديقه سرير خشبي ضيِّق لا يكاد يحمل جسمه .. لكنه أحسَّ به
حملاً معشباً تتماوج نسيماته حوله ، فتحرك أطياف أحلام وردية .

الليلة .. لا قلق ! ولا أرق ! ولا .... « نعال » ... استسلم لنوم عذب
حر ى البداية شخيراً جعل الصديق يقطع رحلة نومه ليغلق عليه الغرفة وحين
ـ ر خطوتين .. لاحظ « نعال » الرجل مقذوفاً فى الصالة .. فانحنى وحمله إلى
حيث ينام الرجل ، ثم أغلق الباب بالهدوء نفسه الذى فتحه به والذى لاتكاد
سمعه حتى حشرات الليل .

تقلّب على السرير الضيق وقبل أن يستدير إلى الناحية الأخرى لمح شيئاً
يتحرك فى الظلام ، ولأنه كان متأكداً من أن « نعاله » خارج الغرفة ، فقد فتح
عينيه على اتساعها ليتأكد من هذا الشيء المتحرك .. لكنه ماكاد يستقر بنظرته
حتى صفعه « النعال » صفعة جامدة ، فلم يقاوم صرخة الرعب التى صدرت
فشقت سكون الليل فى أذن الصديق الذى جاء مهرولاً ... مستفسراً

فى الصباح .. قرر أن يقصد طبيباً .. ولولا ثقته بأن هذا الطبيب لن يبوح
بأمره .. لما فكر بأن يدق بابه ، فهو يكره الأطباء ، يكره التعامل مع من
يؤكدون حرصهم على سرِّ مهنتهم ، لكنهم ينسون القسم الذى أدّوه ، فما أن
يجتمعوا فى بيت أحد أصدقائهم ، أو فى إحدى الديوانيات ، أو الزيارات
الخاصة .. حتى يبدأوا بالتندر بحكايات المرضى ، وأحوالهم النفسيّة ،
ويقهقهون كأنهم بسرد حكايات الناس ومعالجتها قد أحرزوا انتصاراً يقرّب لهم
من يسمعهم . لذلك كره الوقوف على أبواب عياداتهم للعلاج أو الاستشارة
لكن الأمر يختلف اليوم ، فالوضع ليس وضعاً صحيّاً فيسكت عليه ، هنا

حقيقة تترصده كل ليلة .. تقضّ راحته ، تنفّره من فراشه الذى لا يأوى إليه إلاّ آخر الليل منهكاً ، فلا يأتيه النعاس بسهولة ... فهو يبقى ساعات طويلة يستعرض نهاره الطويل ، يستعيد كل أحداثه ، كل لحظاته ، كل الوجوه الأصدقاء ، الغرباء ، حتى أولئك الذين يملكون أن يقولوا له افعل .. ولا تفعل . أولئك الذين عرضت مؤخراتهم من طول استقرارها على المقاعد الوثيرة فى وظائف لا يحملون مايؤهلهم لسد فراغاتها إلا ما حصلوا عليه من أوراق التوصية والوساطة أو شهادات لم يحصلوا عليها بعرق الجبين بل بالعرق المبللة به الهدايا أو الأوراق النقدية المتراصة .

إلاّ هو ... المسكين .. المظلوم .. لماذا لا تكون له وظيفة كبيرة .. ومكتب فخم .. وسكرتارية ! وموظفون يأمرهم .. فيأتمرون .. وفرّاشون يصرخ فى وجوههم فيرتعدون ، ومراجعون يأتون .. ويذهبون .. ثم يأتون .. ويذهبون .. وهو يتسلى بلهفتهم على إنجاز معاملاتهم ، فيؤخرها يوماً بعد يوم .. حتى يلمح ذل التسول فى عيون أصحابها .. عندها يتعطف ويتكرم عليهم بإنجازها هِهْ !

حلم .. حلم أن يحققوا له ما يستحقه من مكانة ، فكل مسئول يحذفه إلى مسئول آخر وكل وظيفة تلفظه إلى وظيفة إما أدنى منها أو أعلى لكنه سرعان ما يتدحرج إلى .. لا شىء !

كره الناس ، كره العمل ، كره كل الوجوه السعيدة ، كره النساء . حتى تصوّر أن كل امرأة جميلة مجرد بومة ، وكل امرأة ناجحة هي منافس خطير لقدراته ، وإبداعاته التى يظنها كامنة فى عقله.. ولم يكتشفها أحد بعد! كره ظهور الناس التى تسير أمامه فلا تراه .. حتى أنه تمنّى لو تصير عيون الناس فى ظهورهم ! أو كعيون الذباب المتحركة لتلمحه فتفسح له الطريق حتى وإن لم

تكن طريقاً ضيقة . كل هذا وغيره يعانيه فى نهاره ! وفى الليل .. يأتى هذا « النعال » اللعين ليفسد عليه متعة النوم .. مما جعله يتنازل .. ويذهب إلى الطبيب الذى أصبحت استشارته ضرورية .. بل .. ومُلحّة .

كان الطبيب ينظر إليه باشفاق واضح ـ يبدو أنه مريض فعلاً ، رغم أنه لم يعلن للطبيب عن حالة مرضية ـ تابع سماع قصته . كان يحسه حزيناً وهو يتحدث والعياء اللاهث بادٍ فى صوته .. متألماً وهو يصور إحساسه بهذا الذل الذى يلقاه كل ليلة تحت جلدة « نعاله » . ويبدو يائساً .. من حلٍ سريع ينقذه .

تابعه الطبيب بارتياح جعله يسترسل فى وصف حالته ، وقبل أن يوجه له سؤالاً كان يكمل ، وكأنه قرأ أفكار الطبيب :

ـ لقد فعلت كل شىء من أجل أن أتجنّب هذا الغزو الليلى .. آخر مرة ـ التى قررت أن آتيك إثرها طالباً العون ـ كنت قد وضعت « نعالى » فى خزانة حديدية وأغلقت عليه بالمفتاح .

ـ هِهْ .. وأظنك نمت مرتاحاً تلك الليلة !

ـ أبداً ... أبداً يا دكتور .. ـ ونفخ ـ ما إن غزا النعاس أجفانى .. حتى فاجأتنى كلها بهجوم كاسح وتناوبت فى ضربى حتى تجرّح وجهى . أنظر

وحرك وجهه العريض يمنة ويسرة أمام وجه الطبيب الذى رفع حاجبيه مستغرباً :

ـ غريب ! كل الأحذية ؟ كيف ؟

ـ لا أدرى ! فى الصباح فوجئت بباب الدولاب مكسوراً .. وكانت الأحذية بداخله متراكمة وكأنها لم تغادر مكانها ، ولم تفعل شيئاً بوجهى .

سأله الطبيب ، وقد بدا الاهتمام واضحاً فى سؤاله :

ـ هل تقسو على أحذيتك فى النهار حتى تتكاتف عليك بالليل ؟
قال بصوت لايخلو من انفعال :
ـ أبداً يا دكتور .. أنا لا أقسو عليها .. أنا فقط أستخدمها لضرب ظهور الناس .
ارتفع حاجبا الطبيب ، لاح استغراب :
ـ تضرب ظهور الناس ؟
هزّ رأسه :
ـ نعم .. نعم ..
ـ ولكن ! لماذا ؟؟
ـ لا أدرى يا دكتور .. هذا شعور يفاجئنى كلما رأيت إنساناً يسير ويسبقنى بخطواته .. فأنفعل .. وأثور .. حتى الذرات الصغيرة فى نفسى تثور ثورة العاصفة .. أحس بمن يسير أمامى وكأنه يتحدانى سعيداً وهو يخلفنى وراءه أحمل كرشى الثقيل وأسير بطيئاً .. فلا أعى نفسى إلاّ ويدى تحمل « النعال » أو الحذاء وتهوى بها على ظهر الذى أمامى ..
سأل الطبيب وهو لايكاد يصدق :
ـ والناس ؟؟ الناس ما ردّة الفعل لديهم ؟؟
مط عنقه الثخين كعنق جاموسة ، أوسع من عقدة « الكرافتة » ذات الألوان الصارخة .
ـ الناس يا دكتور تتفاوت ردود فعلهم . بعضهم يلتفت وقد صعقته الفعلة .. ولا يجرؤ حتى على فتح فمه وكأنه أمام مجنون يخشى أن يدخل معه فى معركة غير متكافئة ، وبعضهم يمطرنى بوابل من السباب والشتائم اللاذعة التى تجعلنى أقف أمامها صامتاً لا أدرى كيف أبرر له فعلتى .. ونفر آخر ينهار علىّ

بالضرب ، ويبصق فى وجهى .

ـ وأنت .. هل ترضى بالإهانة ؟

سأله الطبيب وهو متلهف لمعرفة الإجابة !

ـ لا أهتم يا دكتور .. بالعكس ، أنا أسعد حين أثير اشمئزاز الناس وغضبهم . مالا يرضينى فقط هو الرد الذى يجلدنى ، أحس سياطه تلهب بدنى فتمزقه . وأقف حياله مقهوراً آكل نفسى .. وتأكلنى نفسى .

وبلهفة تساءل الطبيب :

ـ ترى ! أى الردود يفعل بك هذا ؟؟

ـ لفتة ! ـ وصرّ على أسنانه بغيظ ـ لفتة ! تصور فقط يلتفتون .. ونظرة احتقار كبير تطل من أعينهم .. ثم يستديرون عنى وكأننى لست إلاّ مجرد صرصار أو جرذٍ أو حتى بقة تعرضوا لقرصة مفاجئة منها .. إهانة إهانة .. تندلق إلى روحى فأكرعها مرة .

ـ وأنت ! بماذا تفسّر هذا الفعل منهم ؟

خبط على طاولة الطبيب فتطايرت بضع أوراق وأهتز كوب الماء الموضوع على طرف الطاولة فأمسك به .. بلل ريقه بقطرة منه وصرخ :

ـ هذا ما سيفقدنى عقلى .. لماذا لا يفعلون شيئاً ! ألا يؤلمهم الضرب ؟ .

وأكد كمن تذكر شيئاً ـ إننى أضرب بقسوة ـ ها .. ها ...

ضحك الطبيب حتى تجمّع لعاب أبيض حول شفتيه ، بينما الرجل فاغر فاه لا يشعر بشئ ولا بالذبابة التى حامت حول فمه وكادت تدلف إليه لولا أن امتدت يد الطبيب بمطرقة النايلون وهوت بها على مكان الذبابة عند قرف شفة الرجل .. لكن الذبابة كانت أسرع من الضربة التى هوت على وجه الرجل ، فلم يتحرك وكأنه لم يحس بالضربة .

ـ هل آلمتك الضربة ؟
سأله الطبيب .
ـ لا ..
ـ عجيب ! ألم تشعر بها ؟؟
ـ لا ..
تنهّد الطبيب . قال بصوت خفيض كأنه يحدث نفسه :
ـ كثير من الضرب لا يؤلم .. ولا يؤثر ولكن !
قاطعه المريض :
ـ ولكن .. تلك النظرات التى تفوح احتقاراً
هز الطبيب رأسه مؤكداً :
ـ أجل . هى التى تؤلمك . رب نظرة أبلغ من كلام . أبلغ من ا
أجهش المريض كأنه ما عرف البكاء أبداً .. ارتج شحم جـ
تراقصت زوائد خاصرتيه ، وثدييه اللذين يشبهان ثديي مرضع دء
تلك اللحظة .. دخل الفرّاش غرفة الطبيب .. وقدم له لفافة
جريدة .. حين فتحها الطبيب أمام عين المريض كان الفراش يش
ـ أحد المرضى الذين غادروا المستشفى ترك نعاله هذا على ال
ابتسم الطبيب . ركّز نظرته على وجه المريض السمين وتمتم
ـ لعله مريض أراد التخلص من مرضه

بعض الأشياء لا تنتظر

الصيف قاس .. الوجوه متعبة ، بعضها عليه آثار الأرق .. وبعضها النكد .. وعلى بعضها الآخر يبدو تعب الحياة وقرف منها ...

الطابور يمتد طويلاً يتعرج حسب المكان .. يعلو ويهبط .. حسب الأطوال ، ورائحة « البَمْبَر » تفوح من شجرة قريبة .. ثمرة ذهبية تتزرع بين الأوراق المتهدلة الكسول ...

وهناك ... هي تستلقي ..

يتزرع في صدرها الورم .. ويأتي قرار الأطباء :

ـ لقد تفشى المرض الخبيث .. ولابدّ أن يبتر الثديان .

وحالة الفزع امتدت من صدر زوجها إلى جرس الهاتف الذي زعق صوته مستغيثاً :

ـ أرجوك ... أريد بطاقة زيارة مستعجلة ! عبلة تموت .. أكل صدره الداء اللعين .. شهور وأنا أحاول ... ومحاولاتي تُرفض ... عبلة وحيدة أمها ... و .....

أجهش !

لم تكن أول مرة أسمع فيها رجلاً يجهش بالبكاء ، لكن هذا الجهشان مذّبٌ .. يخترق الصدر سهماً ويجعل الكلمات تموت في الحلق ؟

ماذا أقول له ؟؟

كيف أواسيه ؟؟

وما الذى أستطيع أن أفعل من أجله الآ أن أسارع غداً إلى إدارة الجوازات .. لأعمل بطاقة زيارة لحماته التى صارت فى هذه اللحظة حاجة ملحة .. تقف مع ابنتها فى محنة العذاب ! وتمضى الليل مع الصغار.

لم يكن المسئول الذى أعرفه فى مكتبه .. لقد خرج لأمر هام !

ـ والمسئول الثانى ؟

ـ سافر !

يأتى الجواب ذابحاً صبرى ..

ما العمل ؟؟

يهز الفرّاش يده أن لا حول ولا قوة وهو يقول :

ـ ستضطرين للوقوف فى هذا الطابور !

والتفت !

طابور هذا أم ثعبان عَرَقٍ يمزّقه الانتظار واللهفة والرهبة أن يرفض الطلب وتلقى الأوراق فى وجه صاحبها الطالب ؟؟

ـ طابور ؟؟

شهقت ! !

ما اعتدت أن أقف فى طوابير ! ذاك الدلال الذى تعودته كل مرة .. غير متوفر اليوم ... المسئولون من الأصدقاء لايعلمون أننى اليوم سأنحدر إلى طبقة الكادحين .. وأقف فى الطابور ..

فرض .. لابد منه .. من أجل بكاء الرجل المسكين الذى سرى الداء فى صدر رفيقة عمره ... لابد من الوقوف ، هى على أية حال تجربة أحسّ بها معاناة هؤلاء المساكين الذين يقفون كل يوم فى طوابير ... الذين لا يعرفون

مسئولين مثلى .. ولا يتدلّلون كل يوم مثلى !

سرت نحو الطابور ... اتخذت مكانى فى ذيله ! حين استقرت قدماى التفت نحو غرفة المسئول الموصد بابها ...

هِه !!

أنا اليوم .. سأعتمد على نفسى !! ما حاجتى لخدمة مسئول .. أو صديق ! إن الوقوف ومشاركة الناس غير المدللين متعة ! والنزول أحياناً من أبراجنا العالية يجعلنا نرى عن كثب خرائط الوجوه المتعبة فنشعر بمعاناتها التى لا نعرفها !

تسرية عن النفس التى ربض القهر داخلها !!

ببطء يتحرك الصف !

أنهار العرق تنهمر من جسدى ! أحسها تنزلق بين ساقىّ المتعبتين ولعلها كذلك مع الآخرين !

عدوى تعب الوجوه التى سبقتنى ، ونكدها .. وقرفها .. تنتقل إلى وجهى مضاعفة ! فأنا ما تعودت هذا الهوان اليومّى !! أنا المدللة التى تسير أمورها دائماً على مايرام !!

الشباك يغلق !

الموظف يعتذر !

أنظر إلى الساعة التى التصقت بلحم يدى ..

الواحدة والربع !!

انتهى الدوام .

الغد يومٌ آخر ...

رحلة ثانية ، طريق المطار المخيف .. قد تأتى سيارة طائشة ! سائقها إما شاب مدلل لايحمل رخصة قيادة ، أو رجل طفح كيل الشراب إلى دماغه

فأفقده السيطرة على نفسه .. هو طريق الموت اليوميّ ...

وهى ! !

هناك على سرير فى المستشفى ... ترقد ، تتألم ، بانتظار العملية التى لن تتم حتى تنتهى بطاقة الزيارة ، وعندها ... يُبرقُ للأم أن تأتى ! وينتظر الزوج فى المطار .. حاملاً الورقة الصفراء ... جواز الدخول ... لابد أن أسرع .. قبل أن يخرج المسئول ! فيُخْرِج الطابور لى لسانه ثانية ! ويمتص نهارى ! ويلفظنى كغيرى من المساكين إلى يوم آخر !

فجأة تذكرت !

اليوم موعد هام ... ضيوف بانتظارى فى الاستديو . يومٌ آخر يضيع ! وبطاقة الزيارة ستتأخر .. و ... غيرت سيرى .

* * *

غدٌ ثالث ..

وبطاقة الزيارة فى يدى جناح حمامة ، سيحمل الأم سيفرح قلب عبلة حين ترى وجه أمها الحانى قرب سرير المرض ! والموت المرتقب .. وسترتاح فى إقامتها وصدر أمها مرقد وثير لأطفالها .

البطاقة فى يدى .... فرحة بها .. فرحة بالدلال الذى سبقها ... وعتب المسئول :

ـ كيف تقفين فى الطابور ؟؟

ـ بطاقة مستعجلة ! قلت لعل الطابور ينهيها .

ـ كان يجب أن ترجعى ، ولا تقفى !

ـ رجعت بعد أن أغلق شباك الموظف الأمل فى وجهى . هأناذى أعود ...

* * *

فنجان قهوة ... كرسى وثير ... وجه مسئول لطيف ! أليف ! متعاون ! وقلمه الزاهى يخط توقيعه الأنيق ... ، وترفع الورقة بيد الفراش إلى حيث الأختام ، وبعدها إلى الخطاط ... ومن ثم تعود إلى عروساً متأهبة .. يدمغها المسئول بتوقيع جديد كعريس يدمغ عروسه إلى الأبد .

البطاقة فى يدى !

جواز مرور متلهف بانتظار صاحبته .. والفرحة ... وراحة الضمير.

عبلة سترى أمها القادمة ! فقد سهل الله الأمور وإن كانت البطاقة قد تأخرت يومين ! فلا يهم ... «كل تأخيرة ... فيها خيرة » .

* * *

وجَعٌ شق صدرى ! !

وضعت البطاقة قرب جهاز الهاتف .. سأتصل بزوج عبلة .. سأبشره أن البطاقة معى ! وليبرق لحماته ...

وجعٌ شلَّ يدى ! ! !

هناك ورقة موضوعة فوق الجهاز كتبها زوجى قبل أن يغادر فى الصباح ...

تحسست الورقة بيدى ، أحسست صدر عبلة يشكرنى قبل أن يفارق هذا العالم .

الحب له صور

بينك وبينه أكاد أضيع .. أنغمس فى أرض المتاهات .. هو يملك مايجعلنى سعيدة ، مستمتعة . وأنت تملك الوعود .. الكبرى .. فى أن أكون بعد ذلك أكثر راحة .. وأشد اطمئناناً وألتى كل ماتشتهيه نفسى . بينكما أتأرجح .. والمسافة بعيدة .. بعيدة .. تبدأ من ابتسامة عينيه .. ولا تنتهى .

عيناه اللتان أرى فيهما غزارة الشوق . وإغراءً بالاقتراب ، والولوج إلى حلم أحمر أخرج منه أكثر نضارة وأبهج وجهاً ..

وأنت ! لا أكاد أراك أو ألمحك إلاّ فى مخيّلتى التى طالما احتارت كيف تصورك : رجلاً عادياً ؟ أم طيفاً ؟ أو غيمة تحمل ملايين القطرات للعطاشى والمظلومين .

إن فكرت به .. أحن للفرح .. وإن فكرت بك تلازمنى غصة تتحول إلى بكاء يشبه بكاء المجرم عند اكتشاف جريمته .

إن فرحت معه خشيت على فرحى .. وإن بكيت عندك ارتحت من أثقالى .

أنت وهو .. تشدانى إليكما .. وأكاد فى هذا الفضاء الشاسع أن أفقد نفسى .. ويختل توازن دماغى .. فلا أحكم على ذاتى إن كانت تريد هذا .. أو ذاك .. فكيف السبيل لإرضاء أيكما ؟ وكل واحدٍ منكما يتصور أننى أخونه مع الآخر ؟

وأنا .. ـ أقولها بصدق ـ أحبكما أنتما الاثنين .. قلبي يتسع لكما أنتما الاثنين .. وإن تفاوت حجم المكان الذى يحتله أحدكما .. عن الآخر .. قلبي يتسع .. وقلب كل امرأة كذلك .. فمن قال إننا لسنا بقادرات على أن نحب أكثر من واحد فى مرة واحدة ؟

الحب له صور عديدة .. ولكل حب كيانه الخاص ، وخصوصياته وأشياؤه الطفلة التى تنمو فى داخلنا فتثير ألحانها الخاصة .. وعواصفها الخاصة وتأخذ وقتها كاملاً .

أنتما الاثنان أحبكما .. ولا شك فى أنكما أيضاً تحبانني .. وإلاّ لما حاول أحدكما أن يشدنى من الآخر .. أو ثارت غيرته من الآخر .. أو حتى لعن الآخر فى سره .

لكننى أعترف أنه يجذبنى إليه .. أكثر منك ، وأنه يحرضنى ضدك .. حين يسألنى عنك ؟ ومن تكون ! فإن غموضك الذى يحيط بك يحيّرنى فأميل إلى تصديقه بأنك مخادع . أو لا شيء البتة .. وأنت مسئول عن هذا التذبذب الذى أعانيه .

أعترف .. أننى أنساق إليه ، وأنساك .. لكننى حين أتفرغ لوحدتى أتذكرك .. أفتح رسائلك العديدة المليئة بالحكم .. فأرتعش .. ويصيبنى الدوار .. وأعود إليك .. تماماً مثل هذه المرة .. وهأنذى آتيك طالبة عفوك عن هذا الهجر الطويل .. لكننى لا أراك تفتح ذراعيك .. وتستقبلنى بشوق ومحبة إنك تصرخ بى :

ـ أنت تأتين بخداعك .. لست نقية بعد !

ـ أعدك بأننى سأكون .

لكننى أحس بيدك الرهيبة تمتد إلى وجهى :

ـ إياك : إياك أن تعدى بشىء .

وتصمت ..

وأصمت ..

تمتد غابة السكون بيننا ثم يفاجئنى صوتك الراعد

ـ هل أحدثك بماذا تفكرين الآن وأنت معى ؟

أتحسّس صدرى .. إذن .. أنت تعرف ما بداخله ، تقرأ عباراته المنظومة فكيف تقدر أن تحصر كل الأشياء ؟

أجيبك :

ـ بك .. أفكر بك أنت .. أنت وحدك .

تقذف الصرخة فى وجهى :

ـ كاذبة ؟

أتوسل :

ـ أرجوك صدقنى .. فقد صرت مشكلتى .. أنت أنانى .. تريدنى لك وحدك .. أفكر بك وحدك وهأنذى أفعل !

لكنك تؤكد بما يشبه الحزم :

ـ بل هو .. تفكرين به هو حتى وأنت معى .. أنت الآن تشتهين لو كانت عيناك سابحتين فى عينيه .. فى غرفة وحدكما .. تشربان نخب الحب المثلج حتى آخره .. يذيبك انتعاش العشق حتى تصبحى أرنبة بحاجة إلى الدفء .. فيحملك إلى السرير طرية كثمرة استوت على غصنها فتهاوت ، تعيشين معه اللحظة بكل جنونها وتنسين أننى هنا .

ـ ولكن ! أليس من حقى أن أعيش لحظة حب معه ؟

ـ وأنا ؟ متى تعطينى لحظة الحب الذى تعطينه له ؟ ومتى تفين بوعدك

ـ إننى هنا .. جئتك الآن .. وأنت ترفضنى ! تهزأ بى .

ـ جئت لأنك تحسين بالوحدة .

ـ أنت عودتنى أن ألجأ إليك لحظة ضعفى .

ـ إذن جئت لتحتمى بصدرى لفترة .. وحين يعود سرعان ما يتحول صدرى تحت رأسك إلى وسائد شوك .. تهجرينها إليه .. تعودين إليه .. قوية وتنسين أننى كنت مصدر القوة .

ـ أبداً .. أبداً .. إن لك وقتك مثلما له وقته

ـ مخادعة ..

ـ أنت تسد الباب فى وجهى .

ـ لم أتعود أن أسد الباب .. بابى يتسع ، لكننى أريد وجهك صافياً نقياً .. صادقاً .. فأنا أكره الوجوه المزيّفة

ـ أعدك ..

ـ أعد ..

لكنك ترفض الوعد .. تماماً ككل مرة وتقول :

ـ لا تعدى بشىء .. اذهبى .. ولكن تذكرى أننى لن أفتح ذراعىّ إلاّ إذا عدت مغسولة من حبه ..

أعود بخيبتى .. أفتح الباب بكسل .. تلفحنى رائحة البيت فأنتعش وأسحب نفَساً أضم فيه رائحة كل الانحاء .. فأدخلها إلى صدرى بمحبة

أسمعه ....

رنين الهاتف موسيقى عذبة ..

هو .. لابد أنه هو .. لقد عاد أخيراً .

أسرع .. تأكل قدماى درجات السلم .. يتراكض فرح إلى أعصابى .. فرح

الأرض يتدفق عليها سيل المطر بعد جوع .. وعطش .. وقبل أن يكتمل سيل الحياة فى عروقى .. أتذكر وعدى .

لا .. لن أرفع السماعة .. ولن أحدثه .. ولن أقابله . النداءات فى داخلى تتلاحق .. كرنين الهاتف .. شىء يشدنى .. وآخر يبعدنى .. لقد وعدت الآخر ولابد أن أفى بوعدى .. سأكون قوية وأتحدى الهاتف

ولكن : هل أستطيع ؟؟
الحياة جميلة معه .. وصوتها صداح مغر ..

والإقبال عليها حق من حقوق .. فلست إلاّ كائنا حيّاً .. تهفو نفسه لمتطلبات السعادة ..

وأنا .. ألقاها معه .. فى عينيه .. بين يديه .. على صدره .. لكن الآخر أريده أيضاً .. أحتاج إليه .. فعنده أفرّج الكرب عن النفس ويتسع صدرى بعد ضيق .. فهل أنسى لحظات الراحة معه ؟؟

الرنين يتلاحق : بكاء طفل فزع نسيته أمه فى الظلام .. لكننى لن أرفع السماعة !

لابد أن أشغل نفسى .. أمسك بكتاب . أقلب صفحاته . لكننى سرعان ما أقذفه إلى الطاولة القريبة فيلتوى غلافه . أشعل سيجارة .. وثانية .. وأتابع انطلاق الدخان من رأس السيجارة راقصاً إلى أعلى .. وراقصة يتمدد جسدها ويتلوى أمامى على الشاشة الفضية .. أتأملها بقرب ، ثمة تعاريج فى صدرها تنبئ عن الأكف التى امتدت وعبثت بالثمرة . وحين رفعت ذراعيها إلى أعلى ، خطر ببالى أن أمسك سيجارتى وأغرسها فى إبطيها فأشوه مساحتها حتى لاتفكر بعد اليوم أن تتعرى هكذا وهى ترقص .

الرنين يعود مُلحاً .. قاسياً ، اللهفة تنقلنى من منظر الراقصة القبيح ، إلى الهاتف القابع فى زاوية الغرفة .

أوشك أن أتحرك .. تدفعنى رغبتى لرؤية الرجل فى هذا المساء الحزين بعد شوق الأيام الماضية ، لكننى أتذكر لقائى بالآخر .. ووعدى له .

ـ لن أرفع الهاتف ، ولن أراه بعد اليوم .. وسأعود إلى الآخر مخلصة نقية .

أعود إلى الصمت .. للتأمل فى لا شىء مما حولى .. أقوم إلى خزانتى المهجورة .. أنبشها .. أبحث عن قميص تقطعت أزراره .. أو ذيل فستان فكت خياطته .. قد أجد فأنشغل .. فأنسى نداء الهاتف !

لكنى ملابسى كلها سليمة .. آه . لو أبكى .. لو يسيل عذاب صراعاتى . لو أتشرنق داخل لحظتى .. ويطوينى الزمن .. لو أنسى الاثنين ، أهجرهما .. وأبحث عن ثالث يرتضى صراعاتى .. لو أستقر على أحدهما . فلا يعذبنى هذا الاهتزاز المتواصل ..

أرفض كسلى ..

أقوم مرة واحدة .. أقرر أن أستحم ..

لا ...

لن أفعل ! فسيظل شعرى المبلل مشكلتى الليلة .. آه ما أكثر المشاكل جسد ملىء كجسد صرصار تجمّع النمل عليه ليشده إلى بيته

يجب أن أستحم ، أن أغتسل .. أن أعود للآخر ، صافية .. نقية .. كما يريد ..

أدلف إلى الحوض أفتح صنبور الماء .. يتهاوى بارداً .. أتذكر

ـ هذا السخان اللعين كان من المفروض أن أستدعى أحداً لإصلاحه لكننى

نسيت ! وما أكثر ما أنسى .. بات عليّ أن أعلق فى كل ركن من أركان البيت مفكرة أسجل فيها ما أريد .

لن أستطيع الاستحمام .. ولن أكون صافية هذه الليلة . لماذا تعاندنى الأشياء كلما فكرت أن أعود إليه ؟ لا فائدة .. ليس أمامى سوى الهاتف :. أعيد ملابسى إلى جسدى العارى .. لم أفكر حتى بارتداء سواها ، وأركض نحو الهاتف المخذول المنتظر .. تدير أصابعي الأرقام الستة ... أسمع الجرس يدق .. قلبي يدق أيضاً ..

هل سيرد ؟؟ ليته لا يرد .. ليته يصاب بالصمم كى لا يرد
بل .. ليته يسمع ! ويرد.. وينقذنى من حيرة اللحظة. الجرس يتوقف..
صوته يأتى :

ـ أهلا حبيبتى ..

أضحك ..

ـ أهلاً بك أيها الشيطان .. اللعين .. كلما قررت مخاصمتك تأتى

يشمت صوته

ـ وأنتصر : أليس كذلك ؟

وأشحن صوتى بتحد واضح

ـ أين غبت كل هذه المدة ؟

ـ فى مكان جميل .

ـ وبناته أيضاً جميلات !

يتحدانى :

ـ بالطبع .. فوق ما تتصورين .

ـ أيها الخائن : أخلص لك فتخوننى .. سيأتى يوم وتخسرنى .. أنت لا تليق بى

تستطيل ضحكته .. حتى أخالها تصل ما بينى وبينه

ـ أما هو .. فيليق بك .. لهذا ينفر منك كلما ذهبت إليه

أقول باستسلام .

ـ معه حق : كيف يرضى بى وهو يعلم أننى أخونه معك ؟

ـ تسمين حبى خيانة ؟

ـ هو يعتبرها كذلك .. خاصة أننى لا أعطيه بقدر ما أعطيك

يصمت .. ثم يعاود الحديث قائلا

ـ اسمعى .. يخطر لى سؤال هام .. لماذا لايقتلك إنه على حق كما تقولين .. وهو قوىّ .. فلماذا لا ...

ـ اخرس !

أصرخ به .. ألقى بالسماعة ، ينقطع حبل الوصل الممتد .. أشعر ببعض الراحة .. لكنها سرعان ماتتبدد .. هل أستحم بالماء البارد وأذهب إلى الآخر صافية ؟ هل سيقبلنى ؟؟

هل سيريحنى حين يضمنى إليه إلى الأبد .. ويخلصنى من هذا الصراع الطويل ؟؟

رأسى يتهاوى بين كفى.. ولاشىء غير البكاء.. الوقت يمضى.. يكاد يأكل ليلة أتممناها بعد هذا الفراق ، لكن الدنيا تأتى .. أبداً هى ملحاح عطوف .. إذا استدرنا عنها لحقت بنا .. أشرقت بوجهها ، ابتسمت وقالت :

ـ أنا هنا مشرقة دائماً حتى لا يستدير أحدكم عنى

ومعه تأتى الحياة !!

جرس الباب .. نداء ملهوف .. وهمس مشتاق : و.. يدخل .. أراه أمامى .. نخلة باسقة حاملة ثمرها ..

هل كان عليَّ أن أفرح ؟؟ أم أن أخشى لحظة اللقاء ؟

صوتى ينبرى من حنجرتى محتداً :

ـ لماذا جئت ؟

بهدوئه المعتاد يرد :

ـ جاء بى شوق ..

أرفع كلتا يدىّ .. أهوى بهما على صدره العريض :

ـ لعنة الله عليك .. وعلى شوقك لست أريدك بعد اليوم .. أريد أن أستحم أن أتطهر .. وأعود للآخر .. وأهجرك إلى الأبد !

يبتسم بخبث :

ـ أنت بحاجة للاستحمام فعلاً .. فهذه ليلة لقاء .

ـ لا .. لن أستحم من أجلك أنت !

يبتعد إلى المطبخ .. يعود وفى يده كأسان .. لأول مرة ألاحظ لون الثلج أراه أكثر بياضاً من أية مرة سبقت

هل تختلف الألوان ؟ أم أن نظرتنا للأشياء هى التى تختلف باختلاف لحظاتنا ؟

يمد يده بعد أن يصب السائل .. ويسيح الثلج فى الكأس

ـ اشربى .. هذا يريحك .

أبعد الكأس :

ـ لا .. لا أريد .

يضع الكأسين : يقترب .. يحتوينى .

أتلذذ باحتوائه .. آه .. لو أبكى الآن .. فتغسلنى سحائب دموعى .. فى رأسى دائرة متشابكة من الأسئلة :

ـ لماذا نسيت السخان ؟ ولماذا رفعت الهاتف وطلبته ؟؟ لماذا جاء هذا الرجل ؟ لماذا وعدت الآخر؟؟ ولماذا لا أرفضه الآن وأغتسل بالماء البارد حتى تستيقظ كل شعرة فى جسدى فيسرى عليها الماء .. يطهّرها .. فأعود إلى الآخر نقية ؟؟

ولكن ! ماذا لو أيقظ الماء البارد فى الصدر أمومته ؟؟

لا !

لن أسحب نفسى ..

تأتى الكأس .

رأسى على صدره ... أتيقظ .. قبل أن ترتفع الكأس إلى فمى .. أرتعش رعشة مجنونة .. أرتفع عن المقعد .. أبتعد .. أمسك بالكأس ... أصرخ

ـ لا .. لن أشرب .. بل سوف أستحم الآن فوراً .

وتنصب الكأس على رأسى .. فتتسرب القطرات المثلجة بين خصلات شعرى .. ويتهاوى الثلج على سجاد الغرفة

كانت الدهشة تسكن وجه الرجل : عيناى تتابعان قطعة الثلج .. تذوب وتذوب .. الأشياء كلها أمام عينى تكاد تذوب .. ليتنى أصبح ثلجة . ليتنى أكون قطرة ماء.. تجف.. حين تلامسها الشمس. ليتنى أصير نسياً منسياً

فى لحظتى العنيفة يأتى صوت الآخر جباراً

ـ لاتستعجلى .. إنها لحظة انفعال .

ـ إنها لحظة الصدق !

ـ لن تستحمى الليلة .. وستطلبين كأساً أخرى

ـ ذلك لأستحم بها وأصفو .

ـ بل ليرتد انتعاشك وعندها ستهمسين له : « يا حبيبى .. أدفئنى .. لقد جمّد الثلج أطرافى » .

ـ لا .. لا .. لا ..

أصرخ فيه دون أن أراه

ـ أنت تحرضنى على البقاء معه

ـ سيجرّك إلى السرير

ـ اسكت ! أنت تغرينى بالخيانة ثم تلومنى

ـ الطريقان أمامك

ـ وأنا سأختار ..

ـ وقفتك ستطول .. وسيمل الرجل منك .. ويمشى

ـ سأجئ إليك .

ـ الدرب سيطول

ـ سأقطعه

ـ وقد يقطعك فتعودين

ـ مدّ لى يدك .. ساعدنى

ـ لكن يده ممدودة لا تزال .. حاملة الكأس المثلجة

أنتما ....

أنتما الاثنان .. تمدان لى اليد .. تارة قاسية .. وأخرى حنوناً كصدر الأم وأنا .. فى المفترق الشائك .. أقف .. الثلج تحت أقدامى .. يذوب ويذوب ... صوتى .. يذوب

الأشياء كلها تترنح أمام عينى ... تصير ثلجاً وتذوب فى داخلى .. أحاسيسى كلها تذوب ...

و .....

أتهاوى إلى الأرض .

وللحب صوت

حضن يدىّ بكلتا يديه .. همس :

ـ كل عام .. وأنت بخير ...

ودغدغتنى الهمسة الذائبة .. زرعتُ عيى فى لون عينيه .. هربت منى عيناه ... لكنى طاردتهما بجوع سنواتى الماضية ... غرست كل حبى داخلهما ... حاول مرة أخرى ... لكننى بلهفة من عيونى ، اشتعلت كل عواطفى ... تفجرت النار داخل سماء العين واغرورقت بالدمع الساخن ..

تساءلت بحزن :

ـ هل ما زلت تذكر؟؟

أغمض عينيه .. ابتسم .. شدّ على يدى بحنان .. بقوة ... بشوق ... وانهمرت عليه كأنى المطر ... أحزانى ... حرمانى ... خوفى من كل شىء ... ودموعى وكررت :

ـ هل مازلت تذكر؟؟

لمحت فى عينيه صدقاً :

ـ وهل أنسى ؟؟

للحب طوفان رهيب ... تستطيع الأيام أن توقفه . تصير سداً يمنع الانفجار .. والغرق ... ولكنه فى لحظة ما ينهار ويتدفق الماء ليروى كل

العطش ... وفى داخلى كانت العروق ... والفروع ... والمساحات عطشى !
ألقيت برأسى على صدره العريض .. وهمست من قلب عذابى :
ـ كبرنا ... وشاخت منا القلوب ..
يده داعبت شعرى :
ـ وحدى كبرت .. أنت لا تكبرين أبداً ..
ـ كان يوم ميلادى ... يوم عرفتك .
ـ وكان لى أيضاً .. يوم ميلاد ..
وتجيء لحظة ما بعد الانفجار .. الطوفان .. أنسى كل ما حولى ... وأنسى حتى نفسى .. أنسى كم من سنوات الهجر مرت .. ارتميت على صدره .. عانقته .. وزعت شوقى على كل أنحائه ... ودفنت أنفى داخل زواياه .. لطالما داعبت هذا الصدر .. وعابثته .. لطالما تمرّغ شعرى على عُريه .. ودفئه .. دلكته بيدى .. أنعشت فيه مكنونات كانت كالكنز المخبأ عن عيون الساحرات.. والعاشقات.. وكل النساء.. كان ذلك فى الماضى... ولكن؟؟
هل أجرؤ اليوم ؟؟؟
بل ... لقد جرؤت : ولكن : كيف ...
تموت التساؤلات حين ينفجر طوفان الصمت ... وينهمر العشق ليروى كل الأعشاب الميتة ... رغم الأميال التى أحسستها تفصلنى عنه .. لا بل تفصله عنى .. فهو لا يزال داخل روحى .. رقد صامتا .. بيدى أهدهد صورته لتهدأ وتصبر... وكنت أصبّر نفسى ـ بانتظار عودة الروح إلى الجسد ...
أنا .. ما زلت أحبه ... رغم كل سنوات البعد .. وهل كان بمقدورى أن أنسى ؟؟

الصورة أمامى تتتابع .. شعره صار مزروعًا بالذكريات .. كل شعرة بيضاء

تحمل رائحة عطرى .. وطعم شفتى .. وفى عينيه ما زلت أرى صورتى .. هاتين العينين اللتين كم هربتا من بحر عاصف يتلاطم حول أيامى ... لكنهما عادتا .. وزرعتانى فى أحضانهما ... أرتوى ... ويا لزمن الارتواء ... الذى كان ...

انفصلت يدانا ..

جلس مكانه ...

جلست أمامه .. عيناى تمتلئان . ترغبان فى مواصلة حذف الحزن الكبير الذى ملأهما طوال سنوات الهجر ... لكننى أشفقت عليه .. قلت شاكرة :

ـ سعيدة أنا أنك مازلت تذكر .. هذا يفرحنى .

لبس نظارته .. تأملنى ... كبرتُ أمامه ... تفتحت مسامات وجهى ... أينعت رُمّاناً .. وتفاحاً .. وفرحاً .. وفتحت فى ذاكرتى كل الصور .

صمتنا ...

والذكريات بصورها تتلاحق ... وتقف عند صورة :

ـ سنلتقى ذات يوم ..

ـ متى ؟ طال الانتظار ...

ـ سأسافر ..

ـ سألحق بك هناك ..

ـ سأنتظرك ..

ـ سوف أعوضك سنوات القهر ... سأعطيك كل ماتشتهى ..

ـ يبدو أنك تعلمت فناً جديداً .. صناعة الأحلام ..

ـ جدير بنا أن نصنع الأحلام .. لنحققها .

ويبقى الوعد .. قصيدة حب ... كنت أكتب قوافيها بشغف . وأتلوها المرّة .. تلو الألف .. بانتظار يوم .. تتحقق فيه .. ويتم اللقاء .

دس قدميه داخل النعل ... فتح الباب الذى طرقتهُ يد عدائيه .. أطل وجه عامل الفندق .

- من فضلك .. ممنوع استقبال النساء داخل الغرف .

ارتبك ...

تصلبت يده القابضة على أكرة الباب ...

لم أكن قد جلست بعد على حافة السرير اللاهث المترقب ! وهذا العامل الكريه يبدو أنه تابع خطواتى منذ بدايتها .. كان ظلى دون أن أدرى . ظننت أن العالم كله سيغمض عيونه عن لحظة حب بين عاشقين طال وجدهما .. لكن الدنيا كلها تصير عيونا فضوليّة تشتم الرائحة .. للحب رائحة .. للشوق رائحة .. وحزن الحب له أيضاً رائحة !

اعتذر من العامل .. واعتذرت له .. حملت هديته . سبقته إلى الباب .. العامل ينتظر .. لوح أسود يحوّل فرح اللحظة إلى مأتم ! كرهته ... حولت نظرى إلى الرجل الذى أعشقه ... لم تلتق العيون .. بل التقت خيبتان حزينتان .

ويبقى الشوق المجنون يدوى ... افترقنا .. كانت ليلة واحدة .. جاء إلى أرض الحب لنلتقى .. فكان لقاء تتوج بالحرمان .

الحلم يراود النفس .. فى الحب .. لا يأس .. الرغبة حارقة .. والحرمان يولد جوعاً إلى لحظات أخرى . يتكرر اللقاء .. وتتكرر الخيبات ... وكل خيبة تزرع أملاً جديداً .. الدنيا ترفض .. ونحن نقاوم الرفض .

ينمو شىء عميق ما بيننا ... وشتاء يجئ .. وصيف يرحل .. والحب مابيننا لايهتز .. ولا تتساقط أوراقه .. وهو الحب الوحيد الذى عرفه قلبى .. ظل هو الوحيد الذى أحببته ... وحرمتنى منه كل الظروف ... ويوم صار بمقدورى أن أتنفس هواء الحرية ... قال لى :

ـ لا يجب أن أسئ لك ..
لكنني أحبك .. وأنت أيضاً ..

هز رأسه موافقاً .. لكنه صمّم على رأيه المفجع :

ـ سمعتك .. وكلام الناس .

دس السكين داخل صدرى .. وذبح أول فرحة لى ... صفقت بابه .. خرجت ... وأمسكت بقلبي ... عصرته ، مزقته .. وقررت أن أدفن كل الذكريات .

هربت !

طال هربي !

كنت أعلم أننى أهرب من نفسي ... كنت أشعر يوماً بعد يوم ... أنى أذبح الشيء الرائع الذى يتحرك داخلى .. كنت أنوى دفن صورة وجهه الأسمر الهادئ .. الذى تربع داخل الأعماق .. لكننى ذبحت نفسي ... وقدمتها قرباناً لإله حب جديد . صرت عاشقة ! معشوقة ! ظالمة ! مظلومة ! سجانة ومسجونة ! وسبحت فى الظلام . ولاتزال محاولاتى لقتل الصورة الحبيبة ولكن ! !

ها هى الفرصة ... دقت ساعة الميلاد الجديد ... وقد اعتاد أن يرانى وأراه فهرعت إليه . إلى كل السنوات الماضيات .

وسمعته يهمس :

ـ كل عام .. وأنت بخير ...

بعد هذا الهروب الطويل .. يذكر ..

طبعت قبلاتى .. استسلم لها بدفء .. عجبت ... لكننى فرحت ...

خشيت لحظة البداية ... سحبت نفسى من أمامه .. حمامة عادت لها الروح من جديد ... واغتسلت من كل الأدران ..

تساءلت وعيناى فى عينيه ... وفى نفسى أفتح باب الفرح :

ـ هل تنقذنى من غرق جديد ؟؟

واحتوانى .. وهدر الهمس بيننا .. « للحب .. صوت لايقهر » .

حـاجـز النـار

من الزنزانة يا حبيبي ينفجر ألمى .. يصرخ صوتى وعرقى يتصبب ... شعلة الغيظ تحتقن فى داخلى حتى أحس طعم النار فى فمى ويدى ، فأستل الورقة والقلم .. وأكتب لك ، من هذا المطار .. وغيره من المطارات العربية التى أصبحت كالفواصل السوداء ما بين بلد وآخر ، ما بين قلب وقلب .. عقل .. وعقل .. ما بين الدم ... والدم .

هكذا يا حبيبي تمزق الوطن الكبير ، ونصبت حدوده مشانق للحنين المشتعل فى الأعماق ، حنين الأهل للأهل .. الأصدقاء للأصدقاء .. الأحبة للأحباب .

وأنتظر جواز سفرى المعتقل ... أتسلى ... وأرفه عن النفس الحزينة ... وأكتب لك ... وخط طولىّ يشقنى .

هل جربت هذا الخط يا حبيبي ؟؟

إنه يفصلك دون أن تنفصل .. يشقك دون أن تنشق وترتاح فى العذاب .

خط من النار .. لاتستطيع أن تستفرغه وتخلى منه معدتك وتستعذب الخواء من بعده .. ولا أن ينحدر فيخرج مغادراً ويريحك حتى لو قرّح المكان الذى يخرج منه .

هل جربت هذا يا حبيبي ؟

هل أحسست بخط النار يلتهمك من الداخل ، ويشويك فيتآكل لحمك

الطرى .. ويجف دمك الغزير بينما هو رابض لا يتزحزح ! وأنت تقاوم ... لكنك أبداً لاتيأس .. وأنت تذوب .. لكنك أبداً لا تنكمش ثم تموت .. وأنت تحزن .. لكنك أبداً .. أبداً لا تبكى .

هو ذا ما أعانيه اللحظة .. الخط الطولى يسكننى . أحقد عليه .. فلا يثور لكرامته ويغادرنى .. فأظل منشقة من الداخل .... لكن نصفىّ يلتقيان .. هنا فى الرأس .. أفكر .. وأتساءل ... وأكتب لك .

* * *

أكوام البشر .. وجوه عفرها السفر ... أطفال تبكى ... أطفال تلهو ... وتخرب .. وأشياء تنسكب من حقائب اليد ... وأخرى تنكسر ... هدايا من كل الأصناف .. يحملها الأحباب للأحباب .

المكان ضيق ... لكن قلبى ساحة تحملك بداخلها حباً وشوقاً وأملاً فى اللقاء ..

يندس الأطفال بين الكبار ... ويثيرون الضيق ولكنهم أبرياء ... ابتسامة واحدة منهم تجعل العمر ليلة عرس ..

والطابور بطىء ... طابور هنا لأهل البلد .. وطابور آخر لغيرهم .. الدم واحد .. لكن الطابور لن يصبح واحداً أبداً فى الحدود العربية .

طابور ثالث للأجانب .. يخلو إلاّ من اثنين ، واحد اشتهيت لوكان لابنتى لون عينيه .. أما الثانى فكان عجوزاً كريهاً ذكرنى بمدير المدرسة التى تركت فيها ولدى ذات مرة فى بلاد الضباب ... فصاح : هذا مستر وولف ! إنه يخيفنى !

* * *

ملل ... ملل .. ووقوف يؤزم الساقين ، وتأفف خافت كلهاث الفئران داخل الجحور ، ينبعث من شفاه الوقوف .. لكنه لا يعلن معنى ، ولا يجرؤ أن

يرتفع ، فقد يصادر فى صدر صاحبه إلى الأبد .

العيون تتطلع بتوسل إلى الضابط السادى المرتاح على كرسيه يقلب أحد جوازات السفر . يزحف الطابور خطوة .. أزحف ... وأنت فى القلب نبضة تتحرك . وفى العين وهج جميل يشع . يغرد رغم الضيق والضجر .. يزحفون .. وأزحف .. وجهى الآن أمام وجه الضابط المزموم .. كل شىء فى وجهه ملعون بالنفور .. وجه ساخط .. مقيت .. جعلنى أشفق على أهل بيته .

مددت يدى .. فتسلم جواز السفر وهو ممتعض . فتح الجواز .. نظر لوجهى ليتأكد بأن التى تقف أمامه هى صاحبة الصورة الملصقة فى الجواز .. ثم .. ركّز على عينى المتوهجتين بصورة وجهك الذى تركته فى مطار مشابه .. ورحلت . وشعرت بأنه يحسدنى على هذا الفرح الذى ينغرس فى عينى كالنبتة دائمة الخضرة وهو محروم من هذا النبت .

ـ إسمك ؟

قرأ اسمى وسأل :

نظرت إليه بإشفاق .. مسكين ... هم علموه أن يكون صلفاً . عدائياً حتى لنفسه ... فظاً ... عديم الذوق .. وبكل الذوق نطق باسمى ... فأحب هذا الاسم فجأة .. وكأنه قد صدر من ثغرك الذى أشتاقه اللحظة ! أقول اسمى ، أرفقه بابتسامة تمنيتها ترطب نظرته .. فترطب وجهه كله ... ويبتسم ... لكنه لم يفعل ... فأشفق ثانية على أهل بيته وأتساءل :

كيف يطيق كآبته هذه ؟ وإلى متى ؟ يدخل بيته بها أم يرفسها بحنق قبل أن تمتد قدمه بخطوتها الأولى وتلامس عتبة البيت . هل يدخل فرحاً يحضن روجته ويقبل أولاده ؟؟ أم تراه يدخل ليرتمى حزيناً ... ويبكى نازفاً آلام النهار متوسلاً لزوجته :

ـ أرجوك .. الحقيني بحبة من الأسبرين .. أو .. بشيء آخر.

شيء آخر قد ينسيه أنه تبرأ من إنسانيته حين تعامل مع القادمين .. والمغادرين ... ويعذبني تصوري أنه ربما ينسى كل الوجوه التي كشرلها .. وكل الأسماء التي راقبها .. وكل الإنسانية التي حقد عليها ..

هل حقاً ينسى كل هذا ويريح رأسه على ذراعه الممدودة . وفى لحظة يكون شخيره موزعاً فى أنحاء الغرفة مما يجعل زوجته تحمل لحافها وترحل ولا تنسى أن تغلق عليه الباب مخافة أن يتعدى شخيره الغرفة إلى غيرها .. وينام هادئاً ... وحيداً ... إذن : هم أمروه ... فعوّدوه .. فطوّعوه ... فسلخوه عن وجدانه ، ونفسه . فهل تأتيه لحظة الوعى ويستفيق ؟

رفع الجواز ... تصورت أنه سيرده لى . فمددت يدى لكنه تدارك وسحبه قائلاً :

ـ انتظرى هناك قليلاً .

ـ هل فى الأمر سوء لا سمح الله ؟

امتعض ... ركل امتعاضه كلمات .

ـ أفسحى الطريق لغيرك .. ابتعدى هناك ، وانتظرى .

ونفخ ...

لم أدر لماذا ... لكننى رأيت عينيه الجافتين تقعان على يدى التى انسحبت خائبة دون جواز سفرى وكانت مزينة بالأساور والخواتم . نفخ ! وكانت نفخة غيظ .. وحسد .. وألم .. نفخ .. وتمنيته لو لم يفعل .... تمنيت لو واتته الشجاعة ليقف .. ويصرخ فى وجهى :

ـ أنتم تمتلئون بالذهب ... ونحن هنا فى هذا المأزق الوظيفى نجوع ... ونحظى بالهيبة حين نثير الرعب ونقول للناس : انتبهوا هنا الحكومة !

لكنه لم يصرخ ... ولم يفعل شيئاً سوى النفخة .

ياللجمرة !

وصارت الأساور جمرة .. صار وجه الدنيا أسود ، وصارت الطريق شوكاً ، والغمامة البيضاء الناصعة صارت جناح غراب .. وصار الفرح الذى فى عينى حزناً ودموعاً .

لم لا يتحول هذا الذهب إلى خبز وماء؟ لم لا يتحول فرحاً ، وسلاماً وابتساماً يزين الوجوه التى دفنوها بالخوف ، والسطوة !

فى لحظة .. تمنيت لو أعود إليه ... إلى صدر ذلك الضابط المملوء بالحقد وبالغيظ ، وأبكى مؤكدة له أنى أشترى تعاسته بكل هذه الأساور فقط .. ليبتسم .. ويرتاح ... ويثور على هذه الفواصل ويصرخ بأعلى صوته :

« نحن أمة واحدة .. فلتتكسر كل الحواجز .. افتحوا لنا الطريق .. وزفّوا الناس المنتظرة وعلى وجوههم خيبات الأمل ... أمسكوا بأيدى الأطفال .. قولوا لهم زمنكم سيشهد الوحدة والالتحام »

آه ... لو يفعل ..

آه .. لو تتحرك الجمرة ويثور ... عندها سوف يبرد هذا الخط الطولى ... وسوف تهمد النار المشتعلة وتبنى أجسادنا فى الداخل ... تنمو نمواً سليماً لا إعوجاج .. فيها ... ولا تشوّهات . لكنه لم يفعل ! وأبداً .. هو لن يفعل ... هناك سيف يلمع .. وهناك موت حتمىّ .

ظل يمارس ساديته على كل الوجوه ... وكل الأسماء ... والطابور الطويل دودة ذابلة ، والأطفال تنام على صدور الأمهات ... وكثير منهم افترش أرض المطار التى كانت باردة كالثلج .

أنت فى عينى .. تتحول نعاساً عذباً .. والخط الطولى لا يزال يحرث فى داخلى .. ويمزق شراييني .

أسمع اسمى أخيراً .. وأنت كالومض تلمع فى عينى .. وكالسحر يطيرنى فأهرع إلى شباك الضابط .. أستلم جواز السفر ... وكالعصفور أطير .. أبحث بين الأكوام المتراصة عن حقيبتى وأتمنى لو فرغت من أثقالها لأشحن نفسى بها ... وأعود ثانية من حيث أتيت .

الجدران ... تتمزق

قلت للزائرة أن تبحث أمرى مع المسئول الكبير.. فوجودى مع هؤلاء النسوة الأكبر منى سناً يرعبنى ، أنا لا أنكر أننى اقترفت ذنباً ، وأننى أستحق هذا النفى داخل جدران السجن ! ولكن ! مع هؤلاء تُصبح للسجن أكثر من قضبان ...

كررت رجائى للزائرة :

ـ أرجوك .. أريد أن أكمل تعليمى ... لم يبق على نهاية السنة إلاّ شهران ... أريد الكتب .. وأستطيع أن أمتحن آخر العام .. من هنا ...

وعدتنى الزائرة التى توسمت فيها نبلاً ما وجدته عند أحد ... لا عند أمى التى ماتت وشردتنى ، ولا عند أختى التى تحولت فى بيتها إلى خادمة ... ولا عند زوج أختى الذى تبرّأ منه ضميره ..

ـ المجرم !

ـ ألم تكونى قادرة على البوح لأختك بما يفعله زوجها ؟؟

هذا السؤال . آه لو تدرى الزائرة كم طرحته على نفسى ... وكم ابتدعت من أجل الايحاء به لأختى مواقف علها تسألنى .. فأفرغ شحنة الهم التى تثقل علىّ الليل والنهار ... لكنها كانت صمّاء .. لا تسمع الاّ نداء الجارات والأسواق ...

ـ وأولادها ؟؟

سألتنى الزائرة .. فحدثتها بكل شيء ...

ـ أولادها مهملون عندى .. أذهب فى الصباح إلى المدرسة ... أفر من عفاريت البيت ، لكن مسافة النهار تنتهى إلى حيث أعود خادمة ترعى البيت والأولاد .. إننى أعمل أمّا بالنيابة عن أختى ... والموقف تطور .

ـ زوجها ! !

ـ أجل ! يبقى فى البيت .. يحاورنى ... يداورنى ... يثيرنى .

التقطت الزائرة الكلمة الأخيرة :

ـ كنت تشعرين ببعض المتعة !

حاولت أن أهرب من سؤالها ... أن أكذب ... أو أتغابى لكننى أبيت أن أكذب على إنسانة لطيفة ودود جاءت لتسمع قصتى ... وتساعدنى ... وأبيت أيضاً أن أتغابى ... وأنا التى شهدت المدرسة كلها ذكائى ... وتفوُّقى ... رغم ما كنت أعانيه من تعب فى بيت أختى ...

ـ نعم ...

أجبت الزائرة بخجل أحسسته يلسع وجنتى .. أجل أحس ببعض المتعة .. فى البداية كنت أستسلم بدافع الخوف .. بعد ذلك .. صارت العادة جبّارة .. وصار استسلامى بدافع تلك الرغبة التى تتفتح حين يبدأ ..

ـ هكذا ..

قالت الزائرة ... ودوّنت ملاحظة فى دفترها الأصفر ... ثم أغلقت القلم وهى تلقى باستغرابها :

ـ أنا لا أتصور كيف لم تلاحظ أختك ... أو معلماتك الانتفاخ فى بطنك ... وأنت بعد طفلة لم تكملى عامك الرابع عشر.

ـ تصورته أختى ورماً .. أو هكذا أقنعها زوجها .. حاول مرات عديدة أن يدوس على بطنى .. لكننى أصرخ ! فيخاف صراخى .. أنا ... أنا ...

ـ أكملى ...

ـ أنا ماكنت أعرف ما هذا الذى أحمل ... لكننى فهمت أنه مصيبة تترصد أيامى القادمة ...

ـ كيف احتملت آلام المخاض ! ولم ذهبت إلى المدرسة ذلك اليوم ...

ـ هل جربت أنتِ آلام الوضع ؟؟

سألت الزائرة اللطيفة .. شدت على أسنانها وقالت :

ـ لا ... لم أجرب بعد ... ولكن .. أسمع منذ طفولتى أصوات القريبات ونساء الحى وهن يلدن فى بيتنا .. لقد كانت جدتى ـ أم أمى ـ قابلة . يدها مبروكة .. والنساء يفضلن يدها على أيدى الأطباء .

ـ لو كنت أنت التى جربت ! كنت ستعرفين كم تكون اللحظة قاسية !

النساء فى بيتكم كن يلدن على الفراش ... أما أنا .. فلحظة الميلاد .. كانت فى مرحاض المدرسة .

* * *

يا رب ..

يا رب ..

يدى تضغط على الحائط ..

أختى فعلت هذا ذات مرة قبل أن يحملها زوجها إلى المستشفى ..

أكره أختى الآن ... هى ليست معى .. فتساعدنى !

زوج أختى فعلها ... وهو ليس معى ...

رائحة المرحاض ..

رائحة ذبحى تفوح ..

ماء غزير ينسكب من عينى ...

عرق ينبت من عنقى ويصب فى مجرى صدرى المتكور كنهر حزين ...

يدى على الحائط ... أشد ... أشد .. أغرس لحم شفتى بين أسنانى ..

أتذوق طعم دمها المالح . عاصفة دائرية داخل أحشائى .. تتحرك باتجاهات متعاكسة ... دوران موج فى يوم عاصف .. موجة تعلو ، تصل حتى كبدى الخاوى .. ثم إلى أسفل بطنى . تنتهى الرعدة العاصفة . أتنفس . لا أكاد حتى تعود ثانية أشد .. وأقوى .. كيد تعصر الحبل الشفاف داخل جسدى .. تعابثه بقسوة .. يتكوم فى مكان .. ثم آخر .. يعاود الصعود .. فالهبوط . يصعد خفيفاً .. ويرد إلى أسفل بعنف . دوخة تلازم رأسى . تدور الجدران . تتسع .. تضيق .. تتفاعل مع حركة الحبل الطرى .. ألوان تتشابك فى عينى ... خيوط عنكبوت سوداء ... أكاد أغفو .. لكن الحبل فى داخلى يوقظ النعاس ... يعلو يهبط .. يدور ... يدور .. يدور .. ينفجر بركان دافئ .. يتدفق على ساقى لزجاً أضمُّ فخذى .. يتزحلقان بفعل المادة السائلة .. يبتعدان .. يبتعدان .. يفتحان الطريق أمام بقية السائل ، ويمتد النهر اللزج حتى فتحة المرحاض المليئة بالأوساخ . أكره زميلاتى .. بنات المدرسة .. هل مؤخراتهن عوجاء لتخطئ الطريق ، لماذا يتكوم كل هذا على الأجناب .. أف ! !

رائحة المرحاض ، رائحة الماء المتدفق .. أتذكر .. الرائحة نفسها .. رائحته .. زوج أختى ..

يارب .. أنقذنى ...

أعصر هذا الحبل ... ليسقط الحمل ويحمى جسدى .. وليموت العار ...

أتألم .. كيف السبيل إلى الخروج من هذا المأزق ؟؟

هل أصرخ ؟ هل أنادى إحدى العاملات !

هل أخرج إلى الساحة مستغيثة أجر مالى ودمى .. وفضيحتى ؟!

صوت معلمة الدين يرن فى أذنى « وأما السبيل يسره » ...

إذن .. هو الله الواحد القادر على أن ييسر الطريق ..

يسّره يا ربى .. افتحه .. أخرج هذا الذى فى جوفى ... هو ليس لى .. هو لأختى ... لكنه تحدى الأخلاق والضمير والعقل ... وانزرع فى بطنى أنا ..

تأتى العاصفة قويّة .. يهتز الجبل ...

يارب .. يَسِّرْ ... يا رب ....

و .. يندفع الجبل مرة واحدة ..

وأبعد فخذى ... يخرج الجبل من مضيق ... تتمزق الجدران .. والشطآن ... وأسمعها تشق نفسها ... كما يشق قماش الثوب السميك .. شيط .. شيط ..

نزف ! بركان ! عرق ! كله يختلط بكله .. أصرخ .. صرخة واحدة .. وتتكوم أمامى قطعة لحم متحركة ... لها رأس وجسد .. ونبض .. ها هى بين قدمى راكدة .. تتعلق بحبل يمتد حتى داخلى .. اسحب .. اسحب بكسل وتراخ متعب ... تندلق قطعة حمراء أخرى .. لكنها بلا رأس ، بلا يدين ، بلا نبض .

أنظر إلى الطفل .. أتفحصه ولد رجل آخر .. زوج أخت آخر . أركع .. رائحة الدم تدخل أنفى ، زفرة تختلط برائحة السائل الدموى ، المائى ... وأوساخ الزميلات ، لم يعد ذلك الزمن بعيداً .. كانوا يئدون البنات ، ليتهم وأدونى ، ما كنت أريد أن أكون أُمّاً بطريق الخطأ .. فلماذا أخطأتنى دروب زوج أختى ؟؟؟

إبن من هذا ؟ ولماذا يعيش ؟؟

أأحمله وأخرج به ؟ هل سيتكلم ؟؟ وهل ستغفر لى العيون التى ستحيطنى بالدهشة وتنعتنى بالرذيلة .

أمد أصابعى المرتجفة ... أبحث عن دائرة العنق الطرىّ أحيطها بالأصابع وأضغط ، أضغط ، ولا شىء فى ذهنى إلاّ الخلاص من ابن ليس ابنى ...

صمت النبض ... وسال لعاب من ثغره الذى لم يلثم ثغراً بعد ... سكتت الحياة التى لم تبدأ بعد ... وسكت بعض خوفى ...

أذكر أننى أخذت أطرق الباب بشدة .. وأصرخ .. أصرخ .. وآخر شىء رأيته كان وجه الناظرة . وقد شوّهته المفاجأة .

الرءوس إلى أسفل

خرجت للتو من السجن ... شملنى العفو.. ولا أدرى لماذا .. هل بسبب سلوكى الطيب داخل الأسوار أم أن أحدهم قد سعى لهذا الأمر_ رغم أنه لا أصدقاء لى ولا معارف .

«كلهم تبرءوا منى بعد أن أصبحت مجرماً »

فرحت بحريتى ... فجأة شعرت أن أجنحة نبتت لى وأنها تطالبنى بعملية طيران سريعة .

« اضرب الفضاء بجناحيك .. هل كنت تحلم بهذه الحرّيّة ؟ »

ثمانى عشرة سنة ... بعد ظلام السجن .. رأيت الأفق من حولى كرة ضوء .. تلمع ، وتنير ، وتخطف بصرى ، فأمده .. أقطع به أطول مسافة ممكنة .

لكننى واقف مكانى بعد أن خرجت من الباب الذى أوصد دونى سنوات طويلة .. كان القاضى يرى أننى أستحق الشنق .. لكن الدفاع أصر أننى ارتكبت جريمتى دفاعاً عن شرفى الذى أهدرته زوجتى .

جريمة .؟؟

ما الذى يجعلنى أتذكر؟؟ لقد انتهى ذلك الماضى ... أنا الآن بحاجة إلى مستقبل أكثر رحابة ...

أى مستقبل ؟! عمرى الآن جاوز الخمسين ! فهل من مستقبل يرحب بى ويربت على كتفى بحنان ؟!

لعنة الله عليها ، لم يشف غليلى بعد .. لوكانت على قيد الحياة ، لما ترددت فى ارتكاب جريمة ثانية ! وفى هذه اللحظة بالذات .

كان يجب أن أقتلها ... مرة ومرتين .. وعشراً ... تلك المرأة المجنونة ـ زوجتى سابقاً ـ الله لن يرحمها رغم أن رحمته وسعت كل شىء !

أين أذهب الآن ؟

إلى بيتى ؟ لا أظن أن الأرض بقيت كما هى ... ولا البيوت ، كذلك ... ولقد نسيت حتى اسم الشارع الذى كنت أقطن فيه .

تحسست جيبى ...

ـ حسن ، قليل من النقود يفيد .. و .. تلك هى ساعتى واقفة .. أتعمق فيها .. أهزها .. لكنها واقفة !

غريب أن يقف الزمن ! لكنه هناك خارج إطار ساعتى يتحرك ، يسرع .. ربما يهرول ... وإلاّ فكيف مرت كل هذه السنوات الطوال ؟

سرت ...

وقفت على الرصيف .. الهواء منعش .. نحن فى شهر ديسمبر الشمس ساطعة ... لكن الأرض رطبة ، مبللة الوجه .. ويبدو أنها قد أمطرت ليلة البارحة .. الشمس اليوم أشرقت تستقبلنى .. وحدها تستقبلنى ... لكن وجهها عنى بعيد . فكيف أعانق هذه الوجه الدافئ البعيد ؟؟

آه ... لقد كان وجهها دافئاً ... لكنها خدعتنى .. ومسحت الخديعة من نفسى كل رغبة ! فلم أعطها شيئاً .. وهى تصرخ باستمرار :

ـ أنت زوجى ... وملزم بى ..

ـ لا أستطيع أن أعطى شيئاً ...

ـ أنت لا ترضينى ... لم تفكر مرة أن تشترى لى ثوباً جديداً .

ـ عندك ملابس ... وجسدك مستور !

ـ أريد شيئا منك .. المرأة تحب الرجل الذى يصرف عليها ولا يبخل ! يرضيها مادياً .

« ابنة الكلب .. لم تكن تفتأ تعيّرنى بفقرى »

لولا ما أحضرته معى من بيت أهلى ... لكنت عاريةً فى بيتك

ـ ربما يكون هذا أفضل .

ـ أفضل ؟؟ ولماذا ؟؟ أنت حتى لا ترضينى جنسياً

« اللعينة ... تعيّرنى بعجزى » .

ـ أنا امرأة ! هل تعرف ماذا يعنى هذا ؟؟

« أعلم .. بالطبع أعلم .. لقد تزوجتك فاكتشفت أنك امرأة » .

ـ كل النساء يعرفن المتعة .. أنت فقط رجل لا تجيد الصنعة ... أنا لم أتذوق متعة معك .

« بالطبع ... هذا صحيح لكنك تذوقتها مع غيرى أيتها المخادعة » .

ـ أنت عاجز ...

ـ لم أكن عاجزاً أبداً .

« فى الليلة الأولى فوجئت بأنها ليست بكراً .. بكت .. توسلت .. وقبّلت قدمىّ .. وطلبت الستر .. أشفقت عليها رغم الطعنة .

فى الليلة الثانية حاولت .. فرأيت فى وجهها صورة رجل يمد لى لسانه شامتاً ... فانتفضت .

وفى كل الليالى التى تلت ... حتى ليلة الجريمة .. كان لسان الرجل يمتد فى وجهى .. وأنتفض » .

زعق بوق سيارة .. انتفضت هلعاً .. هذا الصوت لم أكن أسمعه وأنا فى السجن .. كل شيء هناك كان هادئاً . السيارات لا تقف .. أشير إليها فلا تقف . باصات طويلة ... تحمل أكداساً من البشر .. لا تقف ... وفضلت المشى .. الرياضة التى لم أمارسها منذ ثمانى عشرة سنة .

التقيت شرطى مرور ... سألته عن مكان ما ...

المكان الذى سألته عنه كان قهوة قديمة أجتمع فيها مع مجموعة من الأصدقاء نشرب « الكدو » ونأكل « الباجّلاء » .

لم يعرف الشرطى المكان .. قال :

ـ نحن لا نعرف أكثر من حدود عملنا ... اسأل غيرى

« فى إحدى رحلاتى إلى الخارج أيام الشباب سألت شرطيّا عن مكان ما .. فأخرج من جيبه خريطة أنيقة فردها أمامى .. وأخذ يشير ويشرح .. و ... أخذت منه العنوان كاملا ... وشرطتنا هنا لا يملكون خرائط !

معه حق أنه لا يعرف . »

تتوزع عيونى فرحة بالنسيم ، وبالشمس ، وبأصوات السيارات ، وبلون الفضاء ... الذى بلا لون .. وتصطدم بلون إسفلت الشوارع .

« قبل دخولى إلى السجن .. كان لون الإسفلت أسود غامقاً » .

الشرطى لا يزال واقفاً .. ربما ينتظر سيارة ما .. ألتفت إليه

ـ ألا تلاحظ أن لون الإسفلت تغيّر؟

قال دون اكتراث وهو يشير لسيل السيارات الطائشة

ـ من كثرة الأموات تحت العجلات

ارتجفت

« كثيرون إذن يموتون كل يوم ... أبرياء ... يُسحقون تحت العجلات فلماذا عاقبونى حين قتلت ؟؟ وكانت القتيلة مجرمة .. خدعتنى .. فأصابنى العجز نتيجة خداعها .. ثم صارت تعيّرنى بعجزى ليل نهار . ثم بحثت عن المتعة مع غيرى ... فعجزت عن الصبر .. أمسكت بالمطرقة وانهلت على رأسها بالضربات حتى ساح سائله أمامى » .

قدماى تقودانى إلى موقف أحد الباصات .. أفرض نفسى داخله .. وأتركه يمضى بى .. ويمضى .. لا أدرى إلى أين .. كنتُ أنتظر أن يمر من شارع أعرفه .. أو سوق أذكرها .. أو بيوت قديمة أعرف من بينها بيت صديق قديم ألتمس منه الرحمة .. والعون

لكن الطرق ضاعت .. ولم أجد بدأ من الترجّل .. عند آخر محطة وقف فيها الباص . منطقة مزدحمة .. عرفت فيها سور مدرسة قديمة عملت فيها أول ما عملت مدرساً للرياضة البدنية .

فرحت .. أطلقت لساقىّ العنان ، تجولت فى المنطقة .. بعض آثار تدل على الزمن الذى مضى . وكثير من الجديد الشاهق الملئ بالإعلانات واليافطات وبالأسماء التى تحمل صفات مختلفة ، التاجر ، المقاول ، المحامى ، الطبيب المهندس ، إلاّ المدرس . هو الوحيد الذى لا توجد لافتة باسمه .. ولولاه لما كان الطبيب ولا المهندس ولا غيره من حملة الشهادات والصنعات

جلست فى مقهى.. طلبت شاياً... وأخذت أتأمل الشارع والمارة والسيارات المحتشدة التى تسير ببطء وتقف طويلاً ، حتى يتسنى لها أن تمر نتيجة الزحام .

تقف سيارة فارهة تقودها امرأة .. وجه نسائى بلا شك أنا أعرفه ، الزحام

شديد .. والسيارة تقف بصاحبتها ، أترك مكانى ... أقترب ... وأمد رأسى داخل السيارة من خلال الشباك المفتوح ناحية اليمين . تلتفت ثائرة . لكنها تفاجأ بى ... أجل .. هى .. ولقد عرفتنى بعد كل هذا الزمن ... وقبل هذا عرفتها ذات وجه ملئ بالبراءة ، وبالطيبة ، ولهاعينان يبحر فيهما الطهر والعفاف لكنها اليوم فى وضع مختلف .. ومع ذلك عرفتها وعرفتنى

ـ ألست فلانة ؟

ـ أجل .. وأنت .. ألست

ـ أنا .. أنا هو بعينه .. خرجت اليوم فقط

ـ آه ....

هزت رأسها .. وسألت

ـ ماذا تفعل ؟؟

ـ استدرت برأسى قليلاً أشير إلى القهوة .

ـ لا شىء ... أحتسى الشاى هنا .. ولا أدرى بعد ذلك ماذا أفعل

ـ اصعد ...

ـ ها ؟

ـ هيا اصعد قبل أن ينفك الزحام ... سنتحدث فى السيارة

صعدت ...

نسيت الشاى ! وثمن الشاى .. وصعدت .

دخلت إلى أنفى روائحها الشهية ! أول امرأة أقابلها منذ ثمانية عشر عاماً وتعرفنى .

ـ كنت جارة لنا ...

ـ أيام كنتَ شاباً .. تعاكس كل البنات ...

« فرحت .. هى تذكر شبابى إذن .. لكنها لم تكن أبداً واحدة من البنات اللائى عرفتهن ، واحتفظت بقطعة من ملابسهن فى خزانتى .. لم أكن أكرر الفعل مع واحدة .. كنت أكره هذا » .

ابتسمت وقلت :

ـ إلاّ أنت .. كنت غير كل البنات !

قهقهت بصوت ينم عن نفسية ساقطة

ـ كان هذا أيام الفقر ! أما اليوم .. فأنا مليونيرة

حاولت أن أكذب ما فهمته نفسى

ـ هذا بالطبع لايمنع أنك الآن امرأة فاضلة كما كنت فتاة ذات سمعة طيبة

مصمصت شفتيها .. تحدثنى بنظرة فاسقة لم أستطع تكذيبها هذه المرة وأكدتها كلماتها :

ـ كنت بلهاء .. أما اليوم فأنا أعيش حياتى طولها .. وعرضها .. وعمقها ليس أروع من أن يقطف الإنسان ثمار المتعة من كل روض .

«كلهن مثل زوجتى .. يبحثن عن المتعة » .

كان الزحام لا يزال .. وطابور السيارات واقف لا يتحرك شعرة . فتحت باب السيارة . وهربت .. بعد أن نظرت لها نظرة حقيرة ، وبصقت على الأرض أمامها .. وعدت إلى مكانى .. فوجدت الشاى لا يزال لكنه صار بارداً

تنهدت ..

قمت من مكانى بعد أن دفعت ثمن الشاى .. هذه الدنيا الواسعة تضيق من حولى .. وتضيق حتى لكأنها حبل واحد يشد على عنقى .. لا إنسان أعرفه ، ولا أهل ، ولا صديق ألجأ إليه .. ولا بيت ينتظرنى .. لأرتاح فيه .

«كان السجن بيتى .. كانت لى فيه غرفة مع زميلين نتسامر ونتحادث ...

ونتمازح ... وأحياناً تغلبنا الرغبة فنحققها » .

هناك بيت كبير أعرفه .. بيت عائلة .. ترفرف عليه حمامات بيضاء سرت أبحث عنه .. لعله يفتح لى أبوابه .. يعتبرنى ابناً من أبنائه .. لكننى وجدت مكانه مقبرة كبيرة ... وعلى كل قبر ينتصب شاهد أسود كتب عليه اسم الميت وتاريخ وفاته باللون الأبيض

اقتربت من حارس المقبرة :

ـ ألم يكن مكان هذه المقبرة بيت كبير يضم عائلة واحدة ؟

هز العجوز رأسه .. وحرك شفتين يلتمع الأسى فيهما

ـ بلى يا ولدى ... لكن أصحابه هجروه ... فصار مقبرة

ـ وأين ذهبوا ؟

ـ ذات ليلة ... هبت عاصفة وملية حمراء ... حملت معها آلاف الجراد فخاف أصحاب البيت .. هربوا إلى مكان بعيد .. وسكن الجراد البيت لسنوات طويلة .. أكل كل ما فيه .. ثم رحل .. وانتهى الأمر كما ترى الآن صار بيت العائلة الواحدة مقبرة .

ـ وأنت .. حارس المقبرة ...

بكى الرجل .. مسح دموعه بكمى ردائه .. وقال عبْر نشيج متقطع

ـ أتأمل .. أن يعود أهله الذين هجروه .. فيحيوه .. ويلتئموا ثانية

طبطبت على كتفه بحنان :

« لم أكن أفعل ذلك مع زوجتى » .

ـ لا تحلم أيها العزيز ... لا تحلم ..

لكنه انتفض ولمع فى عينيه شعاع . مسح الدموع

ـ بلى .. إنى آمل ... لا بد أن يعودوا .. ويعود البيت

هززت رأسي مشفقًا :

ـ الأموات لا تحيا .. خير للميت أن يبقى ميتًا ... وللتائه أن يبقى تائهًا

تركته ... سحبت قدمين ثقيلتين .. لم تعد رغبة ما تشدنى للمشى .. وجوه الناس التى تقابلنى إما صفراء بائسة أو متخمة حتى لتكاد تنفجر ! الأطفال يتسارعون بين السيارات يبيعون الأشياء الصغيرة من أجل أن تسد أفواههم الجائعة التى تغذى من جفافها الذباب .

أرخيت جسدى .. تهاوى كأنه بانتظار هذه اللحظة تأملت الفراغ من حولى .. لم يعد فراغًا نقيًا ..

يا إلهى ..

ثمانية عشر عامًا .. كنت بعيداً عن الدنيا ـ فأعود إليها لأجدها تدور . مقلوبة حتى صارت حياة الناس إلى أسفل .. وعيونهم إلى أسفل .. إنهم لا يرون إلاّ أجسادهم الممتدة إلى أعلى .. فوق رءوسهم .. ويوماً بعد يوم .. ينزلق الجسد ويدفن الرأس .. وتصبح كل المدينة مقبرة لكل الناس

بكيت ..

لم أكن أبكى أبداً ... حتى عندما رأيت جسد زوجتى غارقاً فى دمه .. والجيران وأهلها يولولون وينتحبون بمرارة.. كان الجسد الميت أمامى كالذبابة المهروسة ، شيئاً .. لا قيمة له ... ولا يجب البكاء عليه .

الناس ... كالذباب .. يحطون .. ويرتفعون .. يمتصون دماء بعضهم بعضاً ... ثم يُهرسون إما تحت عجلات السيارات .. أو عجلة الزمن . لا فرق .. لكنهم بالتأكيد لا يشعرون بالأمان ...

« هناك فى السجن. لم أكن أخاف من شىء.. آكل وأشرَب.. أضحك.. وأتكلم .. وأمارس الجنس بطريقة .. أو بأخرى حسب الظروف .. »

الدنيا ضيقة .. وفى السجن تكون أرحب .

رفعت جسدى .. وتركت لقدمىّ حريتهما فى المشى .. فى الركض .. فى البحث عن جريمة أخرى تعيدنى إلى حريتى .

لا خبر... لا...

الموسيقى طوفان ... والقلب غريق .. والجلد يتنفّس من تحت الثياب فينفث . رائحة سلخه القديم ... والصدر .. عشق يتوارى .. ووجد يتنامى بين الضلوع ...

والطبل ، والطار .. وصرخات المعجبين والمعجبات . بصوت المغنى ذى البحّة الحزينة .. وكلمات الأغنية دبابيس تنخر الذاكرة .. وتنزف أحداثها
« لا خبر .. لاكفيه .. لا حامض حلو .. لا شربت » يغنى .. وهم يصفقون
« قلبى يحزن ... فأين الخبر؟؟
« لا خبر» ....

انقطعت الأخبار بيننا .. عيناك السمراوان رحلتا .. مُدناً من الحزن الأسود .. تلوّحان من البعيد .. حيث أنت .

« ولا كفيّة »

وكنت تلوّح بها .. عريتَ شعرك المجعد الكثيف ولوحت بها مودعا وعصرت حزنى .. من خلف الشباك الزجاجى.. ففاض عصيره دمعاً أحمر !

يغنى .. وهم يصفقون بانتشاء حلو ..

نسيت طعمه .. منذ نسيت جدتى حنانها .. وثارت على ..

يوم كنت طفلة .. حملت لى حامض حلو .. وبرميت وأشياء أخرى طرية .. حلوة المذاق .. لكنها بعد ذلك .. غرست نظرتها المرّة فى وجهى وزعقت :

ـ غريب ! غريب ....

ونفخت ثورتها ... ورماد جسدى المسلوخ يتوقد أمامها ناراً ... وهى تنفخ .. وتنفخ ... ويشتعل اللهب ... والأكف تشتعل بنار الإعجاب يصفقون ... كأنهم يضربون أبواب الذاكرة المنسية أشياؤها تحت الركام ... وهو يغنى ... والحز يقطر من الصوت أحمر .. كقطرات « الشربت » .

« والشربت » الأحمر على الصوانى يدور ... وضاربات الطبل ، والطار يشربن .. وأرى دمى ... فى الكئوس .

رائحة الدخان تخنق المكان ... ورائحة جسدى شواء قديم يفوح .. وحدى أشمّه .. وأتلمس اللحم الذى سلخته سياط ثورتهم .. وحرارة صوت جدتى . تصرخ بعنف :

ـ غريب ! غريب !

وكلهم هنا أغراب تآلفت آذانهم .. وحده يغنى .. غريب عن الدنيا التى يتيه فيها صوته ....

«لا خبز .. لا كفيّة .. لا حامض حلو .. لا شربت ...» وهم يصفقون ... والأكف سمراء حرّة طليقة ... وكفى الحارة تشد على توءمها .. وكفّ أبى الغليظة تلوح ، أقبلها فى الصباح ، وفى المساء .. واجب يومى كرهته وثرت عليه ذات يوم ... فتمردت ... وحين مدّ كفه تركتها معلقة فى الهواء وصوته المتسائل :

ـ أراك لا تقبلين يدى ...

وكانت نفسى الحبلى بالحرمان مشمئزة فرددت
ــ مخاط أخوتى .. و « سعابيلهم » على كفك !
وذكرنى بنظرة حمراء
ــ بالأمس رفضت حليب « النوق » الذى قدمته لك
قلت :
ــ لقد شرب اخوتى منه قبلى
هزئ بى :
ــ اشمأزت نفسك منه .. بينما هو حليب أصيل .. أهداه لى أحد الأصدقاء الأثرياء .. هل تعرفين ماذا يعنى هذا ؟
ــ لا يهمنى .
قلتها .. نصفها خرج شجاعا .. وآخرها جبان يسحب نفسه .... وكان الرد تهديداً :
ــ حين تكبرين ، سأزوجك سيداً ، مثل أختك ... وستعيشين فى قصر كبير
وأصلحت الخطأ بقولى
ــ قصدك قبر ! أخرج من قبر لأدفن فى قبر آخر ... أنا يا أبى أكره القصور وأكره من يعيشون فيها ..
ــ تسمين القصر قبراً ... والعريس ؟؟
ــ أسميه الدفان ... والقاتل .. أنا يا أبى لن أتزوج
ــ حين يأتى العريس ... ستحبينه .. سيقدّم لك حليب النوق ... وستشربينه حتى لو بصق فيه ! ستحبين منه كل شىء... وستقبّلين يده.. وربما قدميه.. ستشمين عرقها الذى تفوح منه رائحة العزّ والشبع الذى تعودت عليه هنا أنت أصيلة والأصيلة للأصيل

وقلتها :

ـ لا .....

وأعلنت عصياني ... مرة ... وثلاثا ... وعشرا .

ـ لا ... لن أتزوج من تختار ... وسأبحث عن رجل آخر . رجل تفوح من قدميه رائحة التعب ... فلاح تتناسل الديدان من تحت أظافر كفه التي تزرع أو ربما عبد مجلود ... عند سيده ألف جلدة ! أريده صافي العينين ... لم يرهق لألاء الذهب بؤبؤيها ولم يذق حليب النوق ويتخم ... ولم ترتح ضلوعه على أسرّة الحرير والديباج ... أريده ... رجلا من الأرض .. يعشقها ويلتحم بترابها . وينام على عشبها .. وأنام على زنده .. أغفو ، وأحلم ... رجل واحد ! لامرأة واحدة .... وليس مثلك يا أبي تنتقل كعقرب الساعة من جسد إلى آخر تحرث ، وتتسبع ، والأرض عطشى ... كيف تنام يا أبي كل ليلة في فراش ! ولماذا تريد أن تهديني رجلا ... يملك فراشا أو فراشين غير فراشي ؟؟

دعني أبحث .. أبحث وحدي

أبحث عنك في أزقة الذاكرة التي تراكمت فيها الأحداث .. أبحث في وجوه الرجال المصطفّين أمامي .. يتمايلون .... ويصفقون ... ويرددون مع المغني حزنه ، فرحه ، كلماته ، ألحانه ... وأتمنى أن ألمح في وجه أحدهم شبهاً بك .... وحزناً يشبه حزنك .. لكن ملامحك غائبة .. هاربة من كل الوجوه ... مدسوسة في زاوية واحدة من الذاكرة ... يوم رحلت .. ووجهي يودّعك من خلف الزجاج ... وأنت تلوح لي بكفّيتك الحمراء المنقطة .. التي تحلم... وتحلم... بالوطن. بالعودة. ويكفك الذي عرف معنى التعب كفّك الغريب عنهم ... القريب إلى قرب أنفاسي ... ولهاثي ... ونبضي

يصمت المغني ... وفي الذاكرة حنين لا يعرف الصمت ! ربة البيت تقترب

منى .. تقدّم الصحن .. والسكين . قلبتها بيدى .. ريشة أرسم بها على النفحات الحزينة خطوط الحكاية التى كانت .

* * *

وكان الحب ... ضيف حل فى القلب .. ونسف كل الفوارق ... لم ترفع رأسك لتطاول الشمس فتحرقك .. ولم أنحن لتخدش الأرض وجهى .. كان الخطّ بيننا واضحاً .. متيناً ... وتلاقت كفانا .. تتعاهدان ... وتعلنان خبر الحب الحالم باللقاء الأبدى ! لكن اعلان الحبّ النظيف فضيحة ... وحديثك لأبى كان جريمة عوقبنا عليها بقسوة

حتى جدتى .. نسيت حنانها ... وأكدت :

ـ حلاة الثوب رقعته منه وفيه » ... وهذا غريب !

وامتدت كل الأصابع .... تبصم رفضها على القلب ، والجسد ... وكفّ أبى نار تسلخ جسدى . وتسلخ . وأنت ! رعبٌ يهدد أمن العائلة ... ولابد من العقاب ....

وتترك الأرض التى بذرت فيها الحب .. تتركها مرغماً ويبقى الشواء على جسدى بانتظار لمسة النسيان

يبقى الصحن .. والسكين .. تافهين .. مركونين على الطاولة الرخامية أمامى .. تماماً كما بقيت أنا .. فلم يأت الرجل الذى يحلم به أبى .. ولا جاء من يسقى الشباب حليب النوق ، ولا من يطعم حتى السم ليريح النفس من أثقالها

الطعام مصفوف .. أنواع يملأ المعدة مجرد النظر إليها .. فلا تشتهيها النفس .. ولا ترغب فى رائحتها .. ولا تبقى إلا رائحة الحبّ التى لا تقوى جدران القصور وأسقفها المذهبة على خنقها ..

أنسلّ من المكان .. وصوت المغنى يتقاطر حزيناً فى أغنيته الجديدة « ودّعونى .. ودّعونى .. » .

الملمص

ستأتى الآن يا سعود ... والليل أوشك أو كاد أن يودع بطانته السوداء وأنا .. هنا .. بالذل الذى يرقد فى داخلى أنتظر ... فى الفراش الثلجى ، عشبة جافة أنتظر حتى يأتى هديرك ... وتشتعل عاصفتك . وفى الخارج عاصفة شتائية .. وصراخ الطبيعة أرحم من صراخ عينيك .. وحنجرتك .. وأوامرك

ـ قومى .. أريد ماءً ...

تصرخ أنت ! والليل يصرخ .. وتصفعنى كفه السوداء . والذل فى الداخل يصرخ .. يشق عظامى .. عظمة ، عظمة ـ وأصداء صوتها وهى داخل « مسبحها »[1] الدافئ تصرخ .

ـ نوره ...... يا نوره ....

وأهرول ... أدق الباب الخشبى المتآكل

ـ نعم يا زوجة أخى ...

ـ « خلص الماء » ... إزعبى من البركة

وأزفر مرة .. ومرتين .. لكننى ملزمة أن آتى بالماء ... وإلا سيطالنى بها عصا حامية دائماً .. ونثار فمها الذى يتقاذف على وجهى كالرذاذ المر .. ويدها كالعنكبوت الأسود تصل إلى عنقى .. واليتم .. الأم التى ماتت ... والأخ

---

(١) المسبح : الحمّام.

المرتعش دوماً أمام صراخها ... كل هذا جعلنى أمد الخطو السريع إلى البركة المتربعة وسط الحوش ، وقد اهترأت أطراف عنقها المربع ... والدلو جنين محذوف على الأرض ، يتدلى حبله السّرى داخل البركة

ـ الماء ..... الماء ... يا نوره ..

تغتسل ... هى تغتسل ، ويوم تفعل هذا فان الليلة مقمرة .. والسطح وفراشها الذى تفوح منه رائحة البخور ورائحة جسدين شبعت عيناى من عريهما وحفظت تناجيهما ... ينبوعان شهيّان يطفئ ظمأهما الالتصاق

* * *

وأنت ! !

جسدك الدبق ... تأتيى كل ليلة .. تسبقك رائحة جسدك ... ورائحة الشراب المتخمر تفوح كرائحة مسلخ لم يغتسل بعد فأرجوك

ـ « الله يخليك يا سعود » اغتسل قبل أن تدخل الفراش . لكن طعم سكرك يفوح من بين أسنانك وتصدمى بقايا السهر والمجون

ـ هذا جسدى الزوجى .. وعليك أن تقبليه كما هو

يركبك عنادك .. وتلصق جسدك القذر بجسدى .. لكنك لا تفعل .. يمتد بينى وبينك وجهها .. وتلك الذكرى ... وتنام .. أنت تنام .. وعيناى وحدهما لا تنامان ... حزن يبحث فى قرار الليل عن شفق .. عن سماء .. عن قلب عن شىء يسد فى أذنى مصدر الصوت الذى كان .

* * *

ـ يا نوره ... الماء ... أعمانى الصابون .

وأستعجل .. والدلو يستعجل هو الآخر ، ويمتط الحبل أمامى كجسد ثعبان خائف .. يهرب ... ويهرب ويسقط فى بركة الماء .

فزعت ... وانحنيت برأسي نحو الداخل ... أطل فى البركة الرطبة .. كانت الصراصير الشقر الصغيرة تتطاير ، وثمة بيوض أخرى حمراء تلتصق بالجدار الأسمنتي ، صوتها مُلح يستعجل .. وعيناى تجولان باحثتين عن الدلو .. لكن الدلو صار فى القاع ، ولم أر سوى صورته فى وجهي الخائف منعكسة فى البركة تمتزج بفرح الماء .

ودعت وجهي .. وأسرعت إليها

ـ لقد « طاح » الدلو فى البركة

ولعلع صوتها فى الداخل

ـ طاح[1] حيلك إن شاء الله .. إذهبي بسرعة إلى بيت « بو سعود » وأحضرى الملمص .

والنشوة تطير بي .. ودبيب فى القلب يداعب . وأنا فى طريقى إلى بيتكم فكرت

ـ لماذا لا يكون عندنا ملمص يغنينا عن استلاف ملمص الجيران فى كل مرة ؟؟

لكننى عدت وحمدت ربي .. لولا هذا .. كيف سأراك ؟

وتحرك فى القلب فرح ! أنسانى وخز الحصو تحت قدمى الحافيتين اللتين تعابثان التراب .

وحين امتدت يدى لتدق الباب تساءلت

ـ هل ستكون فى الداخل ؟ هل ستكون ؟؟

وانفتح الباب ... كان وجهك كالشمس تشرق أمامى .

ـ أنت ؟؟

همست بها فرحا . كأنك رأيت وجه القمر !

---

(١) طاح : سقط .

ـ نعم .. نريد الململص .
ـ الآن !
ـ زوجة أخي في « المسبح » نفد الماء .. وتريد

انشرح وجهك .. وهتفت
ـ إذن ! هي في المسبح !

أرخيت الرمش خجلا وأحسست ناراً تشوي وجنتي
ـ نعم .. هي في المسبح .

وأنفلتّ إلى الداخل انفلات مهر تعلم السباق . جئت والململص بيدك يتدلى بأطرافه المعقوفة .

ـ سأذهب معك .. أنا سأخرج الدلو .. وسأزعب الماء ... وترافقنا ..

فجأة ! أحسسنا أننا كبرنا ... والنبض ، له جناحان . والأمل فضاء يتسع لكل الأحلام المعرشة في الداخل .. وأنت تهمس .

ـ هل تحبين مثلي ؟؟

وأسحب العباءة .. أسد بها نصف وجهي .. أواريه عنك . وجه طفلة كبرت .. ودخلت عامها الثالث عشر .

ونسير ...

كان لرفقتك حلاوة الزلابية .. تقطعها مرارة سؤالك
ـ لماذا تكرهين زوجة أخيك ؟؟
ـ نفيت عن نفسي .. كنت بعد طفلة لا تملك أن تكره . وكنت في قلبي العصفور المرفرف الذي يملأ المكان بكل الحب
ـ هي التي تكرهني .. تحملني فوق طاقتي .. وأنا أتعب

قلت معاتباً

ـ لا تعانديها .

ـ لا أفعل ذلك ... كنت من قبل أفعل حين تستكثر على الراحة فى « القايلة »[1] .

ـ كيف ؟

ـ صداعها البغيض .... يأتيها فى ذلك الوقت

ـ وما دخلك أنت بصداعها ؟

ـ أنا الطبيب .. أجلس على رأسها ساعة .. قل ساعتين .. هى تنام .. وتحلم وأنا متصلبة أنتظر لحظة الإفراج

ـ ها .. ها .. وهل جلوسك على رأسها يخفف الصداع ؟

ـ لا أدرى ! لكننى قررت آخر مرة أن أنهى صداعها

ـ كيف ؟

ـ « ضرطت » على رأسها ، فهبت مذعورة ... قرصتنى فى فخذى .. ها انظر ..

كنا قد وصلنا إلى الدهليز ... ووارينا الباب حين رفعت ثوبى المشجر ، فبان فخذى الأسمر الناعم .. وأنت تبحلق .. وتقترب .. تتحسس مكان القرصة وتضغط عليه

ـ آه ..

ـ هل آلمتك ..

ارخيت ثوبى .. وارتخت كفك المرتعشة

ـ أسرع .. زوجة أخى تنتظر

وأسقطت الملمص بقوة .. فصرخ صرخة غريق ، والماء يتناثر على وجهينا ثم

---

(١) القيلولة .

هوى إلى الأسفل .. يدك تحرك الحبل .. ويدى تعابث جديلتىّ المنحدرتين إلى الإمام كحبلين أسمرين ... صوتها فى الداخل

ـ الماء يا نوره ... « حسبى الله عليك » .

وأنا أحثك :

ـ أسرع .. ستذبحنى اليوم

ذراعك تدور .. ودوامة الماء تدور ! ووجهى فى الدوامة يدور ... وتصرخ هاتفاً ·

ـ لقد صدته الملعون .. ابن الملعون .

وخرج الدلو بارداً .. كوجهى .

* * *

والليل بارد ... ثلجى .. ليل ظالم ... اب لا يحمل للأبناء الاّ القسوة والفراش الحزين .. الذى لم يدفأ منذ الليلة الأولى .. والذل .. والوحدة وأوراق الأمل المعرّشة فى الداخل وقد جفّت واصطبغت بلون المرض . وأنا ابنة الليل الجاثم على صدرى جثوم الجبال على أطراف السهول ... أنتظر .. وأنتظر أن تأتى .. والوقت ثقيل لا أقوى على حمله

* * *

ـ أنا سأحمل سطل الماء .. إنه ثقيل ..

ـ أنا أحمله كل يوم ..

ـ « ميخالف » سأحمله اليوم عنك .

ـ وإن رأتك « الذيبة » ؟

ـ لا عليك .. سأصل به حتى باب المسبح .

وابتسمت .... ابتسمنا ..

سرنا حتى باب المسبح .
طرقت النافذة الواطئة :
ـ الماء يا زوجة أخى .
ـ هاتيه ... ساعة حتى يأتى الماء ..

وانحدرت الدرجات الثلاث إلى حيث تجلس .. وأنت أيها الملعون .. توسع من فتحة « الدريشة الصغيرة » وتسرق بعينيك نتفاً من جسدها العارى . ونسمة الهواء غريبة .. دخلت من الفتحة ! أحست زوجة أخى بقشعريرتها ... ففتحت عينيها .. وإذا بوجهك أمام وجهها يملأ فتحة الدريشة وصرخت . فاستيقظت الجدران ! والصراصير ! والزمن !

ـ أنت يا كلب ! !

والزمن سريع ! وخطوة الخوف أسرع ! وأنا ! ! كنتُ فى غيبوبة ولا شك ! وإلاّ ! كيف حدث كل هذا ؟؟

ـ أنت يا سعود ؟ لماذا فعلت ؟؟؟
ـ ستفضحنى يا نورة ! وسيذبحنى أبى ... ولن نتزوج ! ! !
ـ ولكنها ! !
ـ ماتت ! ماتت !

والملمص فى يدك ! يتدلى ملطخا بالدم ! ونتف من اللحم الأبيض .. وهى فى أرض المسبح ممددة كالسمكة ..

ـ أخرج ...
ـ وهذا ..
ـ خذه معك ....

لكنك ارتجفت ... فوقع على صدرها ...

وأنت ! سعفة تهزّها الريح ! وتتناثر الكلمات مختلطة ... تتباعد .. وتتقارب .. تعلو .. وتهبط ... لتكون المبررات .... وتخلق الحكاية :

ـ سأخرج .... وأنت اصرخى بعد خروجى . نادى الجيران ... قولى دخل حرامى اول أن يفعل . و ... هى صرخت ... وأنت هناك فى حوش المطبخ هو قتلها ... وأنت لم ترى وجهه .. ولا شكله وأنا يا نوره .. لم أقصد .... أنا أحبك .. أنت ... وستزوج ! ! وأنت ... ستنسين هذا المشهد . آه ... أديرى وجهك للناحية الأخرى ..

ـ « إذا لم تعجبك رائحتى ... فاستديرى للناحية الأخرى » .

ـ انظرى .. وجهك أصفر ... يرتعد ... وأنا كذلك .. وجهى أصفر .

ـ « أنظر إلى وجهك لقد امتصك الشراب والسهر ... لقد نفد لون الدم من وجهك ؟ »

ـ والدماء يا نورة ! اغسلى الدم أنت ! وأنا سأغتسل فى بيتنا .. و ... سأتزوجك .. أبى يحبك ويتمناك كنّة له ... وأنا سأحميك .. ستكونين بحضنى آمنة ... وسعيدة ... أنا سأخرج : حين أصفق الباب ورائى وأبتعد ... اصرخى .... اصرخى ... اصرخى ...

* * *

ـ آه !

ـ هذا أنت يا سعود .. أخيراً جئت .

ونظرتك نظرة قط فى نزعه الأخير ...

ورائحتك رائحة دم يختلط ببقايا لحم أبيض .. وأنا أرتعد :

ـ نم الآن .. أنت تعب .

لكن لونا أحمر يتناثر من عينيك .. يشمل وجهى ، يحرقه ... ولهاثك

المسعور . وأنفاسك الكريهة . ولعابك المختلط بطعم المشروب ... وفحيحك ... وجنونك ..

ــ وجهك هذا ...

وتتحسسه تحتويه ... تود لو تفعل ... وتعوضنى سنوات القهر . والذل لكن بينى ... وبينك جدارا . جرحاً عميقاً شق رأسها نصفين .. تود لو تنساه لكنك تراه فى وجهى وحاجبى . جرحين أسودين يحولان الرغبة إلى كره وامتناع !

تمتد كفاك .. تتفارق أصابعها .. تتدانى .. تتصلب فى وجهى :

ــ لو يموت وجهك هذا ...

أنتشل نفسى من الفراش الذى توالدت فيه حمم .

ــ أنت مجنون

ــ وجهها .. أتذكرينه ؟؟

ــ لقد نسيته ... نسيته !

ــ لا . هى هنا ... معنا ... فى فراشنا منذ الليلة الأولى . وأنت .... الحب الذى عاش معى سنوات الطفولة .. تتحولين سيفاً يشق ذاكرتى كل ليلة ... والخوف لا يزال راقداً هنا .. فى حنجرتى فأسقيه الخمر ليخدر ... أنت تعلمين ... وغيرك لا يعلم .

ــ لكننى لن أبوح بسرك ..

ــ البوح هنا ... فى عينيك ! بوح رابض ينتهز كل فرصة ليتشعب هنا .... يؤكد الحقيقة .... يفضحنى كل ليلة ... و ... تنهار على الفراش ! وتخرج الكلمات :

ــ ماء .. أريد ماء ....

والماء أتاها ... وعيناك ... والململص !

ويدى على رأسك الغائب عن وعيه ... وجسدك غلاف رخو يعلن عن داخلك المنهار..... وأنا أنتظر... دلواً .... فى قاع البركة الآسنة !

وحين يصدح الفجر... أتحسس رأسى خشية أن تكون فى الليلة الماضية قد أتيت وفى يدك ململص !

حين تبكي المدن

أختى هى التى شاهدت ذلك المنظر ... لكن الصورة المرعبة التى ارتسمت فى عينيها كالوشم الأبدى انتقلت إلى مخيلتى لتنحفر فيها كما تحفر « حبة بغداد » أثرها فى الوجوه الناعمة .

كانت طفلة ... ترتقى درجات السلم المؤدى إلى السطح كل يوم ... حيث غرفة ألعابها .. لكنها فى ذلك اليوم صعدت وقت القيلولة ، وأبى هناك ينام فى غرفته المطلة شبابيكها على المطار القديم .

يومها انحدرت أختى كما تنحدر كرة مقذوفة بأقدام الصبية .. هلع أصفر يبرق فى عينيها وكل عضو فى جسدها ينتفض كأنها القنفذ فى لحظة الخطر !

تعثرت الكلمات بين شفتيها ولسانها يرتجف بها ويطل من بين شفتيها الصغيرتين المضمومتين دائماً كأنهما تزفران الهواء إلى أعلى ...

الصورة تنتقل من عثرتها بفم أختى إلى سمعى إلى ذهنى الصافى الذى يقبل الألوان وتنطبع فيه بسهولة :

ـ « أم قاسم عارية فى حجرة أبى ... وأبى يلعب بصدرها .. يرضع ! »

تخيلت أم قاسم بجثتها القصيرة البيضاء .... ووجهها المربع ، وفمها الذى يشبه رقم الثمانية ... حين تضحك وتمد لسانها العريض فتبدو طواحينها العليا من الجانبين ، والسفلى وقد اكتست بالذهب الغالى .

تخيلتها عارية فى حضن أبى ... بصدرها الوردى المحموم الذى يطل شقّه

الرفيع كمجرى الماء دائماً من فستانا ذى الفتحة الواسعة .. حتى أننى كدت مرة أن ألمح حلمتيها عندما انحت إلى الأرض تلتقط قبقابها ذا الخرزات الملونة ذات الأشكال الطولية المرصوصة بفن وأناقة . وتخيلت أبى طفلا يشد صدرها .. ويعابثه بيد كيد أخى الصغير حين يبحث عن صدر أمى المحروس دائماً خلف ثوب مستور من صنع يدها وحين تفتح الفستان وتقذف بصدرها إليه تتلاعب قدماه الصغيرتان ويداه الناعمتان .. ويمد لسانه يلحس حلمتها ، وأسمع صوت امتصاص الحليب يجرى من نهر أمى إلى ثغره ثم يترك الصدر ليتنفس بعمق .. فتسيل قطرات من الحليب من حلمة أمى .. أمدّ أصبعى إليها وأبلله ثم ألحسه فتقول مداعبة :

ـ تشتهى أن تعود رضيعا يا سالم .

كان عمرى يومها اثنتى عشرة سنة . وكانت الطفولة لا تزال جزءاً من أيامى .. وأبى الذى ودع الطفولة منذ زمن يعود إليها .

فى ذلك اليوم ... وغيره من الأيام ، تبقى أمى فى الليوان تخيط الملابس ... وعينى تراقب زندها النحيف يدير الماكينة فأشفق عليها وأرجوها مرة ... وثلاثا حتى تسمح لى بأن أديرها . بينما تمسك يدها بالقماش وتسحبه باليد الأخرى ... وبين لحظة وأخرى تلتفت إلىّ معاتبة :

ـ ألن تكف عن تمزيق ملابسك ؟؟

وأهز رأسى... أكاد أعدها.. لكن عربة حصان جارنا «أبو خلف» التى نتسلقها ونقفز منها تشدنى فأسحب وعدى بابتسامة مغرية تثير حنان أمى التى تأمرنى بلطف :

ـ قم للنوم .. ألا ترى كيف ينام أبوك فى القيلولة ؟

والقيلولة بالنسبة لأبى أمر هام ... لكنها لا تحلو إلا فى غرفة السطح حيث

نسمة الهواء الآتية من النوافذ المشرعة .

لكن ! بعدما رأت أختى المشهد ، أدركت أن لغرفة السطح فوائد أخرى غير هوائها المنعش . فهناك يخلو أبي .. يبحث عن جسد يمتد على فراشه غير جسد أمى .. وأم قاسم تأتى دائماً فى القيلولة باكية ... شاكية لأمى :

– أخى .. الكلب ... الحرامى ... سرق أرضى ... نهب مالى ...

ثم تسأل أمى وكأنها لا تدرى أين مكان أبي :

– « وين أبو سالم الله يعافيك » ؟

وتشير أمى باتجاه السطح لكنها تكون قد وصلته قبل أن تكمل أمى اشارتها ... ساحبة خلفها عباءة سوداء مسدولة عن رأسها وعن جزء من كتفها فيبدو لحمها الأحمر قانياً وصوت سبابها القذر يتقاذف كالنثار :

– ابن « .... » سرقنى القواد ... لن يفيد معه إلا أبو سالم ... فلابد أن أشكوه ! !

والشكوى تتكرر .. يوماً بعد يوم .... وأخوها « القواد » لا يفتأ يسرقها .. وينهب مالها . فتأتى لأبي تشكوه ، وأمى تزفر وتنحنى على الماكينة كالقوس وتردد :

– « الشكوى لله .. سالفة أم قاسم ما تخلص » .

كذبة كبيرة ... صدقناها .. واستمرأنا خطوتها داخل بيتنا حتى انفلتت قدما أختى كما تنفلت الخيل من مربطها لتعلن ما شاهدته .. وتكشف سر أبي الذى لم يكن يسمع شكوى أم قاسم ! بل كان يتمها !

أما أمى ... فقد تبلدت وأصابها ما يشبه الموات فى ساقيها فلم تتحرك حتى عندما انفلت أبي خلف أختى وأخذ يمزق جسدها الأسمر الرقيق « بقصمول »

السعف دونما رحمة .. وكأنه بهذا الجلد البشع سيمحو من ذاكرتها المشهد المروّع .

* * *

ظل المشهد أثراً محفورا فى ذاكرتى ... وظل وجه أم قاسم الخليع يتماوج فى عينى كلما عبرت الستين حتى التقيت لأول مرة فى « حوطة » الحى « بعلية » ابنتها . فراودتنى النفس أن أمازحها وأعاكسها .. فحاوطت الهواء من حولها فاتحاً ذراعى الطويلتين . تتحرك إلى اليمين .. فأميل ساداً عليها الطريق .. وتتحرك إلى اليسار فأسبقها ساداً عليها منافذ الهرب .

كانت تحمل « بقشة » خضراء فاقعة منشورة عليها وورود ذات ألوان بنفسجية وصفراء ... سحبتها منها فانفلتت من يدها إلى يدى دون مقاومة وسألتها :

ـ لمن هذه الأغراض ؟؟

ولم أنتظر إجابتها .. سارعت يدى تحل عقدة طرفى البقشة المتقابلين .. ثم حللت عقدة الطرفين الآخرين فتبعثرت الأشياء أمامى .

ديرم[1] ومشط من الخشب العريض .. دهن أخضر فى زجاجة رسمت عليها زهرة حمراء .. أشم رائحته دائماً فى رأس أمى بعد كل حمام .. حنّاء .. وليفة حمّام ... ونعل جلدى .. صرة فيها شىء ناعم كالتراب لكنه لم يكن كذلك حين انهمر بعض منه فى كفى ... قنينة عطر على هيئة ثلاثة قرود .. صمّ الأول أذنيه والثانى يغلق فمه .. أما الثالث فقد حجب عينيه بكف يده .

قربت الزجاجة من أنفى طمعاً بشم رائحة زكيّة .. لكن شوقى تبدد حين لامس طرف الزجاجة فسألتها :

ـ ماهذا ؟؟

---

(١) أعواد خشبية تلوّن الشّفاه ـ للنساء ـ

قالت مرتجفة ولعابها يلمع على شفتها السفلى :

ـ كولونيا ...

قربت الزجاجة ثانية ... تصنعت العنف وصرخت فى وجهها :

ـ لاتكذبى ! هذا ليس كولونيا ..

انحدرت دموعها فجأة حين رأتنى أفتح الزجاجة ثم أصب ما فيها على الأرض ... وتوسلت :

ـ أرجوك .. لا تفعل .. سوف تذبحنى أمى لو عرفت :

هدأتها :

ـ ما هذا ... ـ مشيرا للزجاجة ـ أخبرينى ما هذا ولن أخبر أحداً .

هوت بجسدها إلى الأرض تلم البقشة ، وتمنيت لو ألمح شق صدرها كما لمحت شق أمها من قبل ، لكن الصدر كان مستورا كصدر أمى .

همست بصوت اعتراه كثير من الخجل ودون أن تنظر إلى :

ـ هذا بول ...

شهقت :

. بول ؟؟ بَوْلُ مَنْ ؟؟

رفعت عينين جميلتين .. ثم عادت ونكستهما ثانية :

ـ بول أمى ! !

دهشتى تتابعت بالسؤال :

ـ بول أمك ! فى زجاجة ! وتقولين كولونيا ...

قبل أن تنطق لمحت كيس الحناء الرخو وهى تحمله فى يدها لتضعه فى البقشة فهزئت منها :

ـ وهذا ... ما هذا ... « براز » أمك ؟

زمت شفتيها بقرف .... ولم تجب .

وقفت .. فاقتربت منها وخجلت من نفسى ... لامست كفى كتفها ..

فارتعشت .. عفربتّ على زندها أسألها :

ـ حسن ... ولم تبول أمك فى الزجاجة ؟

ورفعت الزجاجة التى فرغت أمام عينيها وأنا أكمل :

ـ وزجاجة كهذه بالذات ... لا تسمع .. ولا ترى .. ولا تتكلم ..

ابتسمت ... ثم تداركت وكشّرت فسألتها :

ـ لمن هذه الزجاجة ؟؟

فرحت بسؤالى لأنه ضيع السؤال الذى سبقه وقالت متعجلة :

ـ هى وبقية الأغراض لصديقة أمى هناك ..

وأشارت .. تابعت إشارتها فإذا بها تدل على بيت جار لنا ، فسألتها لأتأكد من قولها :

ـ هناك .. ذلك البيت الأصفر ؟؟

هزت رأسها مؤكدة :

ـ نعم .. نعم ... هو ..

وعاد إليها سؤالى الذى حسبته ضاع .. ولكن بشكل آخر :

ـ ولكن لماذا ؟ هل يتعطر جيراننا ببول أمك ؟؟

هذه المرة لم تستطع أن تكتم ضحكتها فانطلقت كتغريد عصفور ... وصدح صوتها ببراءة :

ـ أمى تعمل السحر لبيت جيرانكم .. ولكل من يطلب منها : تبول فى الزجاجات وتوهم النساء أن هذا دهان .. إذا دهنت الواحدة منهن ملابس زوجها فإن عينيه لا تنشغلان بامرأة سواها .. ولا يسمع لكلام الناس عنها ..

ولا يتفوه على زوجته بكلمة تجرح مشاعرها .
ـ لكنه بول .. وليس دهانا ..
ـ هذا صحيح .. لكن النساء لا تعلمن ذلك .. بل تحسبنه علاجاً سحرياً لأسر الأزواج .

وانتبهت أنها فضحت أمراً ما كان يجب أن تنطق به ، فسحبت الزجاجة من بين أصابعى .. وهى تتأفف بحزن :
ـ أف ! ها أنت سكبت ما فيه ... فماذا أفعل ؟؟

واندفعت الفكرة إلى رأسى .. وتتالت ... وامتدت حتى ملأت كل جسدى .. فسحبتها من يدها .. جررتها إلى « ربعة » الحوطة .. وحبستها خلف برميل عريض صدئ ... سحبت الزجاجة التى لاتزال فى يدها .. ورفعت ملابسى . نزعت لباسى .. وقربت فوهة الزجاجة ! وأخذت أبول فيها وهى جامدة تخدرها المفاجأة وارتعاش يهزّ رموشها تحاول فيه أن تمنع نفسها من النظر فلا تقوى ...

كلمتها :
ـ لا تخافى ! سأملأ لك الزجاجة .

امتد ارتعاش رموشها إلى الجسد .. حين فرغت لمحتها تتكوم على نفسها ، وتضغط على صدرها بين ذراعيها... فحرثت الشهوة فى عقلى.. وشد الماضى الجامح ... يجوّل بى مسرعا إلى صدر أمها الذى رأته أختى فى فم أبى ... وفى أعماق ... صرخ الصوت :

افعل .. افعل .. ما فعله أبوك بأمها .. اخدعها كما خدعت أيمها أمك الغافلة واسفح الدم كما سفحه أبوك من جسد أختك التى شهدت الخيانة !
اقتربت منها .. عاصفاً كالريح .. تملؤنى رغبة الشهوة ورغبة الانتقام ..

رميت بالزجاجة .. ثم رميت بجسدى فوقها لأصب النار على الجسد الذى تحوّل فجأة إلى رغيف ساخن تفوح منه رائحة التنّور .

واندفع نشيج كموسيقى الحشرة السجينة فى زجاجة .. ورفعت وجهاً ساحراً .. لمحت طبقة من الماء تلمع كالزجاج فى عينيها ... وخلف الزجاج كانت مدن عينيها تبكى... وشوارعها تسترحم... وبيوتها الآمنة تطلب الأمان... وشفتاها المرتجفتان تهمسان ... فتشق الهمسة صدرى الملتهب .. وتطفئ النار ... تخمدها فجأة ... حين تتهادى الهمسة :

ـ أرجوك .. أنا لست أمى !

انتفضت عنها كما ينتفض الحصان حين تهدر الصرخة من حوله .. وأسلمت ساقىّ للريح خارجا من باب الحوطة .

* * *

لم تراودنى مطلقا بعد ذلك فكرة الزواج منها ... فمن يدرى ... قد تكون هى الأخرى نطفة أبى التى انزرعت فى رحم أم قاسم .

الإشـــاعة

فى تلك الليلة فقط ... تغيّر كل شىء .

عصف عاصف الخوف .. فمزّق خيوط الألفة الرحيّة ، وانبلجت أسنان الرعب تهرس رغبتنا كلما فكرنا بجمع الشمل فى مكاننا المعهود الذى شهد نماء الحب وصفاء الأمسيات .

* * *

كنا نعود ملتحمين .. نغنى بأصواتنا الجماعيّة التى يرقص لها ضوء المساء ... وتتطاير حولها النسمات حاملة الصدى الأليف .. لكن « شهابو » برز فجأة بدشداشته القصيرة الممزقة دائما ، فقطع على أقدامنا الحافية سيرها الوئيد يحلق بعينيه كما يفعل دائما .. ولعابه اللزج ينحدر إلى صدره الذى تعرّى .. وصرخ :

– « إياكم أن تأتوا هنا ثانية » .

ماذا ؟؟ انتقلت نظراتنا ... والتقت سريعاً .. وقبل أن ينطق أحدنا باعتراض صاح بصوت خائف متهدّج :

– هناك .. فى تلك « الربعة » يسكن جنى ! !

تصادمت نظراتنا السريعة ... نظرات شك ، لكنه أردف حين شعر بشكوكنا :

ـ لقد رأيته بعيني .. وحين أطلقت عليه كلبي تجمد الكلب هناك .. انظروا ..
والتفتنا .. إلى الربعة التى شهدت كل شيء ....
فإذا الكلب ملقى .. وقد تدلى لسانه منحسراً بين فكّين مبلّلين.
دفعنا به ... ونما الشوك فجأة تحت الأقدام العارية الطرية .. فأطلقنا السيقان .. أجنحة فراشيّة تبحث عن الفراغ لتطير .. حتى إذا وجدت الزهرة المتفضة على غصنها هجعت بارتياح.. وكانت بيوتنا الزهرة التى قصدناها لا نلوى على شيء.

* * *

وهجرنا « الحوطة » ..
هجرنا الأحياء الضيقة بعد أن كنا كل ليلة نعبر طرقها الأليفة .. ونتمشى بين البيوت الطينية الواطئة .. نشتم روائح الأبقار والأغنام المربوطة فى أحواشها وتحت « عرشانها » . ونستمع لكأكأة الدجاج والأفراخ فى دهاليزها ذات الأبواب الخشبية الشامخة بأصالتها ... الخالية من الأقفال والحديد .. إلا من « مقحام خشبى » تمتد فى آخر الليل يد الرجال لتغلقه .. وتحمد الله .
وكانت عيوننا تتابع الهررة المتحابة على الأسوار الندية التى تلوح فى شقوقها بقايا الشعر الإنسانى أو كسر الخبز الجاف التى امتدت أيدى المارة إليه لترفع من شأنهم السماء .
نمشى ... واعتياد أليف صادق يشدنا كالحزمة القوية ... حتى نصل إلى مقر لهونا .. وأنسنا .. إلى الحوطة التى تشهد كل ليلة أنواع لعبنا ... وبراءتنا .. فكنا نتقاذف بالحصى .. ونغطس فى ماء المطر المتجمع فى الحفر .. وندك الأرض برجل واحدة ... نتسابق .. والذى يصل إلى الربعة يفوز بالجائزة ...
ـ ماذا نلعب الليلة ؟؟

وقبل أن نتفق يكون « شهابو » قد مرّ بصراخه وعبثه وأكوام العلب الفارغة التى يربطها بالخيوط ويحلّى بها رقبته ... وساقيه .. ورأسه فيصرخ :

ــ لاعبونى معكم .. « أنا المجنون ... آكلكم » .

لكن أصواتنا الرافضة تسد فى وجهه باب المشاركة ونلحقه بالعصى .. والحصى .. فيهرب فارّاً بينما نعود متضاحكين ... متسائلين :

ــ ماذا نلعب الليلة ؟؟

ــ اللقصة [1] .

ــ اللبّيدة [1] .

ــ لا .. نلعب « عماكور طاح فى التنور [1] » .

وأخيراً يقترح صوت :

ــ نلعب « إحدّية أبديّة [1] » .

فنوافق ...

نتحلق بدائرة ... فتمتد أكف البنات المحنّاة جنباً إلى جنب مع أكف الصبيان التى شققها البحث عن « القبابى [2] » تحت «سيسان [3] » البيوت والشوارع .

نرص الأكف وننحنى حتى تكاد رءوسنا المتقاربة تصطدم . وتدفع قماشة بسبابتها الطويلة داخل فيها ... تخوضها فيه تقفز بها من كف إلى الآخر بحركة دائرية وهى تغنى بصوتها المبحوح بينما تغنى شفاهنا بصمت كلمات الأغنية :

« إحدّية أبديّة .. ناصر ديّة .. حط الكور على الزنبور يا قناص .. قوم

---

(١) اللقصة .. اللبيدة .. عما كور طاح فى التنور .. إحديّة أبديّة : كلها ألعاب شعبية كويتية .

(٢) القبابى : دود الأرض .

(٣) السيسان . أساس البيت تحت الجدران

إقنص .. شبط خيلك شبطها .. باب الحلة وباب الشام .. مريت على غرابين ... يأكلون سحتين . قلت يا عمى يا بو حسين ... كم يوم على رمضان .. سبعة أيام والتمام .. وحاديها .. وباديها .. واضرب الخيل معاديها .. خرجة برجة طاحت بالماى قالت تش » .

وتنتهى الأغنية .. وتكون السبابة قد استقرت مع نهايتها على آخر كف .. وتبدأ المساومة :

- « تريد قرصة الحيّة .. أو العقرب ؟ »

والعقارب فى الليالى الحارة لا تتركنا .. عدو يترصد أقدامنا الحافية .. ويفرغ سمه الأخضر فيها . ويفرق الجمع الأليف

« وشهابو » عقرب آخر . يثير الضجر والرعب أحياناً عندما يختبئ فى الزوايا .. أو الأحياء المظلمة ويصرخ فى وجوهنا فجأة .. ويسعد حين يهز الأمان المستقر فى نفوسنا .. وكان اهتزازاً مارقاً كالبرق لا يترك أثره .. ولا يحرمنا من اللقيا رغم إصراره على تكرار فعله .

* * *

أما فى تلك الليلة ، فقد تغيّر كل شىء .. وحبلت النفوس الصغيرة برعبها حملاً ثقيلاً .

سكننا الخوف .. تفبتى فى صفوفنا كما يتفشى السل فى الرئة السليمة .. فرضت ليالينا الهادرة التى لم تعتد السكون الرتيب .. وعشنا فى انكسارنا نجتر الذكرى .. ونختصر اللقيا على النهار .. حتى يذبل قرص الشمس .. ويفوح لونه الوردى معلناً بداية ظلام الأمسيات .. نتوادع .. كل إلى بيته ... نسكن ونفكر .. « بالجنى » الذى سكن « حوطتنا » فكدر ليالينا وانتزع أماننا كما تنتزع جذور السدرة من أرضها . وتساءلت عيون الأهل وألسنتهم .. وخشيت فرقة

الصغار .. ربما هو الشجار الذى سرعان مايذوب فى إناء طفولتهم ... لكنه قد يمتد فيصل الكبار الذين قضوا سنواتهم أهلاً .. وأحباء ... يحتسون الفرقة والكدر لكننا لم نجرؤ : وكأن « شهابو » قد زرع موسى حادة فى حلوقنا نخشى لو حاولنا البوح أن تذبح أعناقنا .. ولكن : إلى مُتى ؟؟ والشوق لدفء الليالى وأنسها ينغل كالنمل الجائع فى صدورنا .

ـ إلى متى ؟؟

نطقها مسعود ..

وانفرجت الأسارير .. تلك هى المرة الأولى التى يصدر فيها السؤال إلى الجماعة ..

إذن .. لابد من الحوار الحازم .. والوصول إلى قرار ...

ـ لماذا صدقنا شهابو ؟؟

سأل خالد .. وأجابت قماشة :

ـ ربما كان يكذب ...

وانبرى محمد .. صديقنا السمين .. وتلته أصوات :

ـ إنه يكرهنا ..

ـ لأننا لا نلاعبه معنا ..

ـ لأننا نسخر منه ..

وأطلق فهد عبارته :

ـ ما رأيكم ؟؟

وبشغف الغريق إلى قشة صحنا بصوت واحد :

ـ رأينا فى ماذا ؟؟

قال والإصرار مرتسم على أنحاء الوجه الأسمر :

ـ نجرب الربعة ! !

ودفعنا الهلع الذى احتكرنا دفعة واحدة ... فهببنا واقفين تتداخل أصواتنا المرتجفة :

ـ لا .. نخاف .. الجنى .. الموت ... لا ...

لكنه رفع ذراعيه مهدئاً فبانت قرحته الجافة :

ـ أنا مستعد أن أجرب .. فقط ساعدونى ... هل توافقون ؟؟

جالت عيناه تبحثان عن إجابة .. لكننا جميعاً كنا ملجمين فكرر قوله .. وأكد أنه مستعد لهذه المغامرة من أجل أن تعود ليالينا مشرقة فوعدناه ...

وعدناه أن نأتى فى الليل إلى الحوطة ... لكننا أخلفنا . كان الخوف واحداً يترصد بنا .. لكنه اليوم أصبح توأما تانية الخوف على صديقنا فهد من الموت .

ورغم سنواته القليلة ، كان فهد شجاعاً بإصراره وعناده .. وحلمه أن تعود الليالى الفارّة إلى مأواها . أخذ يتوسل .. لكن التوسل إلينا كقطرة الماء التى تصب فى يوم قائظ على الرمل ..

وبكى مرتين .. لكنه لم يلق شفيعاً ولا نصيراً .. بل تضاحكنا نهزأ من دموع الرجال ! !

وأخيراً هدّدنا بالانفصال عن الجماعة .. فخشيت القلوب انتزاع شريان من شرايينها .

وافقنا .

* * *

اصطففنا عند باب الحوطة .. أجسادنا المتلاصقة لحماً وعظماً .. يُعلن صوت ارتجافها مدى الهلع الساكن فى كل شعرة ..

و .. بدأ فهد يبتعد .. وعيوننا تشيعه دامعة مبتهلة .. حتى اقترب من

الربعة .. وكانت أرواحنا قد وصلت حلوقنا .

وصل ..

فاستدار نحونا ... وصار ظهره ذو العظام البارزة ناحية الربعة .

وقف شجاعاً .. يرفع كلتا ذراعيه إلى جانبيه وبدأ يعود إلى الوراء .. إلى الور .. إلى الو .. إلى الـ ...

ودوت الصرخة ... ! !

وأحدث الدوى انفجاره ... فطارت السيقان تقلع التراب من مكانه . . لامبالية بالأحجار والمسامير وقطع الزجاج المتناثر .

وتفتحت أبواب البيوت بعنف ... وانصفقت باحتجاج : ولم تهدأ الأجساد .. ولا العيون .. عرفت الكرى بانتظار الصباح .

* * *

صاحت الديكة !

فتوقعنا صرخة تشق عباب الصمت الحرون الذى أزمنا .. أين الصرخة التى ستعلن نبأ موت رفيقنا ؟!

ومتى تسحب الأمهات عباءاتهن السوداء التى غزاها الاخضرار .. وينهمرن على بيت أم فهد انهيار السيل نائحات مواسيات ؟؟ ومتى تخف أقدام الرجال بنعالها النجدية لتتحلق حول تخت الغسول يشارك بعضها « الغسال » فى لف الكفن وتعطير الجسد الصغير بدهن العود وماء الورد ؟!

* * *

الصمت .. ولا شىء سواه ..

بدأ تناغم الأصوات التدريجى .. صوت الأحياء تنفس بعد أن أعلنت أصوات الديكة عن انبلاج الصبح ..

لا شيء يثار : ولا حزن يعلن ..

واجتمعنا .. تحدونا رغبة ملحاحة لمعرفة مصير رفيقنا فهد ... تهامسنا .. وقررنا أن نذهب إلى بيت فهد ... نسأل عنه .. فإن وجدناه اطمأنت النفوس ... وإن لم نجده سنصارح أمه بالخبر المشئوم ... ولن ننسى أن نعلن خبر « جنّى الربعة » .

* * *

ما أن فتحت أم فهد الباب .. وانشق انشقاقة نصفيّة حتى لمحنا فهدا مستلقيا فى حوش البيت على فراشه .. وقدمه اليسرى مربوطة بخرقة حمراء منقطة ...

دلفنا ... وحين تأكد من اكتمال عددنا صاح فى وجوهنا :

ـ أيها الجبناء .. لقد هربتم فى اللحظة التى كنت فيها بحاجة لمساعدتكم ..

تلعثمنا .. وتقدمنا نحوه مسرعين نتساءل :

ـ هل خرج الجنى ؟

ـ هل لمحته ؟؟

ـ هل ..

وانزلقت عيوننا إلى قدمه المربوطة :

ـ هل قطع قدمك ؟

ـ هل .. وهل ...

الشيء الكثير من السؤال .. وأم فهد ترقب المشهد باسمة آمنة ..

ـ اجلسوا يا رفاق ..

تهاوينا على فراشه الذى بلله ندى الصباح ..

ابتسم لنا ...

ـ اسمعوا .. لقد كانت إشاعة أطلقها شهاب المجنون .. وتعرفون بالطبع قصده .

ليس هناك من جنّى .. ولا من يحزنون .. لقد كانت صرختى صرخة ألم واستنجاد .. زجاجة مكسورة انغرست فى قاع قدمى .. وكنت بحاجة لكم .. لكنكم هربتم ..

قاطعه مسباح بتوسل من يطلب العفو :

ـ ظننّا الـ ...

ـ أدرى .. أدرى ...

وضحك حتى استلقى فبانت فى ساقه قرحة أخرى .

الطاسة

سلمت أمى لجدتى الطاسة المعدنية :

ـ تفضلى هذه طاسة الحناء ... عجنته البارحة .

وسألت جدتى :

ـ والسدر[1] ؟؟

وردت أمى باقتضاب وهى تتوجه إلى زاوية الغرفة :

ـ سأحنى البنات اليوم .

انحنت على صندوقها « المبيت »[2] وفتحته .. ففاحت منه رائحة بخور مكتوم ، وروائح « دهن العود والورد » التى تستعملها أيام الأعياد ... وتذكر بليالى الأعراس .

بيد حانية رفعت بعض الأشياء الراقدة فى الصندوق.. وسحبت الطاسة الصغيرة .. ثم عادت وسوّت وجه المحتويات بحنان زائد ... بينما تنهيدة عميقة مليئة بالشوق تصدر عنها وتعلن عن شىء مخنوق فى داخلها .

وحين لمحت جدتى الطاسة الصغيرة زفرت :

---

(١) السدر : نبات مثل الحنّاء ويستخدم بدل الصابون

(٢) صندوق مبّيت : نوع من الصناديق الخشبية الضخمة يستخدم لملابس المرأة .

ـ أف لهذا الوسواس الخنَّاس .. أنا لا أدرى لماذا تحملين « طاسة الذهب » معك كلما خرجت !

وترد أمى :

ـ هى كل ما نملك فى هذا العمر ... إنها مهرى ...

وتلين لهجة جدتى :

ـ يا ابنتى .. كلنا نملك مثل مهرك .. فلماذا لا نحمله أينما ذهبنا ؟؟

وتقذف أمى جوابها المختصر :

ـ الحرص واجب يا أمى ..

فتؤكد لها جدتى :

ـ لو تركت باب بيتك مفتوحاً ... لما امتدت يد لشىء فيه .

وتصمت برهة بانتظار كلمة من أمى .. وحين لم تسمعها تلك أكملت :

ـ الدنيا أمان ... فى السوق يتركون مالهم ... وحليّهم .. ويذهبون للصلاة .... وأنت ! خائفة على طاستك !

عدلت أمى من وضع عباءتها الخفيفة فوق رأسها وهى تقول

ـ لو ضاعت فسيلومنى أبو البنات حين يعود .

لم يعجب جدتى الرد ... قلبت سحنتها وسخرت من أمى

ـ الجنون ... فنون ...

دست أمى الطاسة الصغيرة تحت ذراعها الأيسر ... وفتحت الباب .

* * *

لاح وجه البحر الأزرق لامعاً ... ضاحكاً .. تدفع أمواجه زبداً أبيض تلتمع عليه أشعة الشمس فيبدو كخطوط من الفضة المصقولة ... وهب نسيمه الرطب ذو الرائحة التى لا تخطئ أصلها ... يدخل إلى الرئتين لطيفاً فيبعث فى

الأوصال برودة تلطف الجسد وتخفف من حرارته . وانحدرنا عبر الشارع الضيق نحو « اليال[1] » الذى بدا صافياً ... لامعة رماله ... مرتاحة حجارته و « زبابيطه » التى تستحم بالماء ثم تجف .

كان مرورنا فى الشارع الضيق ... عبر البيوت الطينية ذات الأبواب الخشبية المواربة فى الغالب ... ومن أحد البيوت يتسرب حوار رجل وامرأة ! وفى آخر يعلو خوار بقرة ... وبعض أصوات الديوك ... وتفوح من كل البيوت روائح طهى اللحم ... أو السمك ممتزجة برائحة الجو الرطب والتراب المبلل بنداوة تنبت أيام الصيف .

مررنا ببيت « أبو صالح » مدت أمى ذراعها ... وطرقت بابه ... فالتفتت إليها جدتى :

ـ لماذا تطرقين أبواب الناس ؟؟

بلا اهتمام بغضب جدتى ... قالت أمى :

ـ اتفقت مع أم صالح أن أطرق بابها لتلحق بنا . لديها بعض الثياب للغسل .

اقتنعت جدتى ... وواصلنا .

استمر انحدارنا ... البحر حلم أزرق يمتد .. أمى ونحن خلفها كالبطات البيض ... تتقدمنا جدتى حاملة فوق رأسها « بقشة » الثياب ، وبعض الحاجيات اللازمة لحمّام البحر ، وتحت ذراعها الأيسر تدفن طاسة الحناء .

كانت جدتى قصيرة القامة ... ممتلئة .. لها وجه مربع عريض ينتهى من الجانبين بزاويتين ... قائمتين .... يلتقى ضلعاهما فى استدارة الذقن المائل دائماً للاحمرار .. يزداد احتقانا حين تثور ! أو تضحك ! أو تعطس .

---

(١) اليال : ساحل البحر

كانت جدة طيبة ... حنونا .... تفرحنا زياراتها القليلة التى تحمل هداياها من الرمان .... « والكنار »[1] وحلاوة الديك . كما كانت تحمل الأمان معها فأمى التى تتورم رءوسنا الصغيرة من ضرباتها . تمتنع عن فعل ذلك فى وجود جدتى ، فقد لقنتها ذات يوم درساً حين دخلت ورأتها ترضّ رأس أختى بالحائط فتدميه . سحبت جدتى عصا أبى الغليظة المعلقة على الحائط نفسه وانهالت بها على أمى ... وهى ترغى ... وتزيد :

ـ غياب زوجك يجعلك تقسين على الصغيرات .... فذوقى مايذقن .

يومها أعلنت أمى التوبة ... لكنها توبة مؤقتة ... ثم أصبحت جزئية .. بحضور جدتى فقط ... وكانت تتوعدنا قبل زيارتها لنا :

ـ إياكم أن تقولوا لجدتكم إننى ضربتكم ... وإلاّ فسوف أذبحكم حين تخرج .

وكنا لا نفعل ... فجدتى تحمينا مرة ، ولا تفعل فى عشرات المرات التى لا تزورنا فيها ... لكن عتابها لأمى لا ينقطع فى كل زيارة :

ـ ما بالك هكذا .. عصبية على الصغيرات ؟؟

وتبكى أمى :

ـ شقاء فى الليل ، وفى النهار .

ـ أنا أكره بيتك من هذه الشكوى المتواصلة ، كأن أحداً غيرك لا يفارقه صاحب بيته .

ومسحت أمى دمعتها :

ـ تمر الأيام علىّ طويلة يا أمى .

ـ وعليهم ؟؟

---

(١) الكنار : نوع من النبات الصغير.

لم ترد أمى على السؤال ، فاعتدلت جدتى فى جلستها ، تربّعت ... فبدت كمربع نبتت له دائرة فى ضلعه الأعلى :

ـ أنت هنا .. فى بيتك ... ومع بناتك ... ورغم كل المصاعب أنت فى أمان ... أمّا هم ! ...

وتنهدت ...

ـ فهم بين السماء والبحر .. فضاء كبير قد يبتلعهم فى أية لحظة .

ماج اضطراب فى وجه أمى وهمست :

ـ لو حصل له مكروه ...

وقاطعتها جدتى وهى « تتفل » كمن تطرد شراً :

ـ تعوَّذى من الشيطان ...

وتعوذت أمى بصوت ينز حزنا ... ويحمل مخاوف :

ـ الحياة صعبة ... ترينني أخاف على طاسة الذهب ... لا قدر الله ... لو فقدناه ... لم نجد مانعيش منه ..

وعلا نشيجها ... اقتربت منها جدتى وهى تقول :

ـ حياة بحر ... غوص ... وتعب .

قالتها .. وسحبت تنهيدة عميقة من صدرها الذى يئز دائماً بالربو ... ثم ربتت على ظهر أمى بحنان وهمست :

ـ ادعى الله أن يعودوا سالمين .

* * *

وأحبنا حنان جدتى. فهو حنان ينبع من كفها التى تحمل الحلوى وحنان من صوتها حين تحكى « حزاويها » الطويلة التى تنعش خيالنا .. وتبهج قلوبنا .. وتقصر على أمى ليالى الفراق الصعبة .

وأحببنا كذلك حمام البحر أيام الجمع ... حيث ترافقنا فى رحلة الطريق الناعمة ... وفى البحر ... تداعبنا ... تغطسنا فى الماء ... ثم تلطخ رءوسنا بالسدر الأخضر، تفرك به شعورنا .... فترغى رغوة يتطاير زبدها فى الهواء راقصا على نغمات صوتها وهى تغنى أغنيات البحر وتحكى لنا عن جدى الذى كان يغيب عنها شهوراً طويلة .. لا تسمع عنه خبراً ... وتظل بانتظار موكب البحارة بعد سفر عسير ... غانماً ... أو فاقداً لأحد غاصته ... أو رجالاته .

كانت الذكريات تلون وجهها العريض بالفرح ، والتذكارات عالية ... والجدّ نامت عيناه منذ سنوات طويلة ... وأبى اليوم يرحل ، وأمى تبكى وتضيق ذرعا بحياتها ، وتخاف على طاسة الذهب التى هى رأس مالها لو تعكر صفو حياتها ... ولهذا تقسو علينا كلما عصف الخوف بقلبها ... أو وسوس شيطان بصدرها فننتظر زيارات الجدة ، وأيام الجمع .. بالشوق ... وباللهفة .. وبفرح الصائم بانتظار لحظة الإفطار .. حيث الحلم .. البحر الأزرق .

* * *

هو ذا البحر يعانق العين .. هو ذا الأزرق الذى نستفيق على موسيقاه الوالهة ... ونراقب من الأسطح سفنه ... وأشرعتها المبحرة مع الرياح ... ونشم عبر هوائه زفر الهامور والزبيدى ، ورائحة جدى الذى رحل ... وأبى الذى حمل الزوادة ... وودعنا ... ليعود .

* * *

ويرتاح الجسد على الشاطىء ... ترتاح طاسة الحناء التى تلطخ أمى بها رؤوسنا ... فنبدو كالعجول الصغيرة الخارجة للتو من بطون أمهاتها ملوثة

بالدماء ... وننتظر على الرمل الدافئ .. حتى تتشرب شعورنا اللون الأرجوانى ... نجمع الأصداف .. والأعشاب المتنفخة ، نقفعها بأسناننا ونبصقها لترتدَّ إلى أمها البحر خائبة خاوية .. بينما أمى وبعض النسوة يغسلن الملابس والكنابل الصوفية والحصر ... وزبد البحر الأبيض يتجمع فقاعات تصطدم بأيدى النسوة التى تحرك الماء فترتد كارتداد الشفق إلى كبد السماء .

* * *

بدأت أمى بأختى الكبرى ... وحملت أختى الثانية طاسة الذهب .. وحين رصفت أمى شعرها بالحناء نحّتها جانبا ... محرضة إياها الا تغطس فى الماء حتى يجف الحناء تماماً ..

ثم سلمتُ الطاسة الغالية لتحنى أمى شعر أختى الوسطى ... وبين لحظة وأخرى ... كانت تلتفت إلى منبهة :

ـ انتبهى ... شدى على الطاسة ... إياك أن تفلت منك ..

وبانتظار أن ينتهى دورى ... عصرت الطاسة إلى صدرى حتى أحسست بها تلتحم به .. وخشيت إن سحبتها يد أمى أن تسحب عظامى معها ... وتنهدت بفرح حين انتهت مهمتى وسحبت أمى الطاسة منى .

رقدت عليها كما ترقد دجاجتنا على بيضها ، وأخذت تحنى شعرى ... مطمئنة .. تغنى بصوت يبتلع البحر صداه .. وكان يصلنى متقطعاً .. يشد الموج البحر نغمة ... وتشد أذنى نغمة . ونغمات تنطلق نحو السماء . ترتفع مع الهواء ... ولعل أمى يحملها الشوق إلى أبى الذى يستمع لأغنياتَ البحر ... وصت النهام .

وانتهى دورى ...

وفكت أمى جدائلها السوداء ... شعرها الليلى ينهال على كتفيها وصدرها

وكأنه مل أسره . والتفتت إلى جدتى :

ــ هل تمسكين بطاسة الذهب حتى أحنى شعرى ؟

لكن جدتى هزت ذراعاً دسماً فى وجه أمى :

ــ لا .. لا تحمليني مهمة شاقة كهذه ... ظلى راقدة عليها ... فقد تبيض لك ذهباً أكثر.

* * *

موجة ... موجة .... والبحر يرقص ... ونحن نتداعب ونتراشق بالماء ... وشعر أمى الطويل يتحنى بكفها خصلة ... خصلة ... والبحر غدّار .. مخادع ... وأمى سعيدة بشعرها ... والبيض من تحتها دافئ والموج يصفع الرمل ... والرمل يصرخ ... وتنطلق صرختة .. لتتحرك الطاسة المعدنية ... فتخرج من بين فخذيها كخروج الطفل من مخبئه ... وتصرخ أمى :

ــ الطاسة الطاسة ...

وتنتبه العجول الصغيرة .. وتنتفض جدتى ... وأمى واقفة ينسدل نصف شعرها المحنى على كتفيها .. بينما يتطاير القسم الآخر فى الهواء ... وتصرخ بصوت تتحدى فيه موج البحر :

ــ الطاسة ! امسكوا الطاسة !

هرعنا مذعورين من عالم الحلم ... والفرح ... صيادين بلا عدة... نحاول أن نصطاد السمكة الهاربة ... التى تحمل فى بطنها مهر أمى .. ورأس مالها .... الماء يرتفع ! يرتفع وجدتى تسحبنا وتصرخ :

ــ ارجعن يا ملعونات : ستغرقن !

وحلم أمى ! !

تصرخ أختى الكبيرة :

ـ الطاسة يا جدتى ....

فتشد جدتى شعرها المحنى .

ـ الطاسة بالشيطان ... هل تغرقين ! !

هو ذا حنان الجدة وخوفها على البطات ... بينما أمى مفجوعة تصرخ :

ـ الطاسة ... الطاسة !

والطاسة تبتعد فوق الموج .. خيال يهتز فوق صهوة حصان ... وأمى .. تصفق وجه الماء ... وتندفع لتمسك بها ، وجدتى تتبعها متثاقلة ، تسحب شحما تشق به الموج الثائر ... ولكن الطاسة أبحرت ... وأبحرت ... مودعة صراخ أمى الذى صار نواحًا ...

عادت .... تضرب صدرها ... تولول ... بينما جدتى حزينة الوجه .. تعصر « ملفعها[1] » الشاش الذى تبلل بالماء وتردد :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله ...

---

(١) الملفع : غطاء رأس المرأة .

لعبة فى الليل

فى النهار تتلون عيناها الطفلتان بلون الورد الأحمر كلما تلاقتا مع صورة الأم تحضن طفلها إلى صدرها . تلك اللوحة الجبارة بمعانيها التى لم تعرف معنى منها أبدًا . تهزّها اللوحة التى حفرتها أنامل أختها على الحائط المقابل . ولونتها بالفحم الأسود ، وملأتها حنانًا أموميًا هى لا تعرف كيف استطاعت أختها المحرومة أن تجسّده فى اللوحة ، رغم أنها عانت الحرمان مثلها .

وفى الليل .. تسهد العينان الطفلتان .. تتلّونان بلون الليل الأسود ... وجراح النهار الحمراء التى حمل بهما صفاء العين .. فينزف صامتًا حين يهبط الجناح الرماديّ على الأرض .. فتغفو كل العيون . إلاّ عينيها .

من أين يأتى النوم ؟؟ وهنا ... فى كل أوصالها تتبدى الرعشة مثل شكة الدبوس الحارق .. والخوف لسان خشن يمتد إلى كل الجسد .. يبلّله بالعرق وبالدّبق

ـ الآن تأتى .. بعد قليل ستأتى ... متى تأتى ؟؟

هكذا تحادث النفس نفسها .. وتتوقع خطوات زائرة الليل . فربما تزور المكان وهى مستيقظة فتراها العين وتصدق !

كيف تأتى الزائرة ؟؟ وكيف تتحرك ؟؟ وما الذى تسرقه ؟

ـ إنها تسرق الكحل من العين .

إذن : لماذا يبقى الكحل الأسود ملطخاً عيون تلك المرأة ــ زوجة أبي ــ ولا تسرقه زائرة الليل ؟؟ عيناها تتقرحان .. تشكو السهر .. تتوسل أن ترتاح لكن الخوف يرفض التوسل .. يوقظ الانتباه ... فكيف تنام ؟ تتأوه :

ــ زوجة أبي تأمرني .. تقول لى : نامى .. تهدّدنى بأجنحة الخطر وتقول نامى . فكيف أنام ؟ هل يستطيع من يتوقع الخطر أن ينام ؟؟ فلتأت الزائرة إذن .. ولتحملنى إلى دنيا بعيدة مبهمة .. فمن يدرى .. لعل زوجة أبي تكذب . إنها تكذب على أبي كثيراً .. فما الذى يمنعها من أن تكذب علىّ ؟ وتصور لى الزائرة بتلك الصورة .. وترعبنى وهى تقول أنها ستأكلنى ... لم لا تكون الزائرة حنوناً وتحب الأطفال .. فتحملنى إلى مكان أكثر أماناً . وأعمق حناناً . وأطيب ارضاً ؟ وتحمل معى وجه أختى الحانية ولوحة الأم التى تحمل طفلها محفورة لا تمحوها ضربات الرمن على الجدران ... إلى دنيا لا أرى فيها وجه زوجة أبي الذى تصفعنى قسوته طول النهار .. ثم يهدّدنى فى الليل .. فأنتظر .. وأتوقع .. وأتساءل :

ــ متى ستأتى ؟؟ متى ستأتى ؟؟

* * *

السماء صافية لا تزال .. مثل كل ليلة .. والنجوم تترامى بدلال هنا .. وهناك .. عرائس تنتشر كحبّات الماس تتلألأ .. تطمع كلها فى نظرة يرسلها القمر المارد الممتد فى العلياء .. رجلاً مغروراً .. يبهر بريقه كل النجمات . فتتمنى كل واحدة لو تكون تحت البريق . وعيناها تبرقان .. والخوف بداخلها رغم ما تتصوره عن الدنيا التى ستحملها إليها الزائرة .

تلين أطرافها قليلاً .. تحرك ساقيها .. ترفع رأسها الصغيرة وتستدير ناحية « غرشة » الماء . فقد فأجأها عطش تكره أن يفاجئها فى الليالى المقمرة حيث كل

شيء يُرى .. وهي تخشى أن تلمحها الزائرة فتخطفها ... تثير حركتها صوتاً ..
تتحرك أختها الراقدة بسلام قربها :

ــ لماذا تقومين ؟؟

ــ أريد قطرة ماء ... حلقي جاف .

تشير أختها ناحية « الغرشة » :

ــ الماء هناك ... قومي واشربي .

تهز أختها بلطف :

ــ قومي معي ... أنا خائفة .

تنتصب الأخت في جلسة سريعة فوق فراشها المبلل برطوبة الليل :

ــ تخافين ؟؟ ممَّ ؟

تستغرب سؤال أختها :

ــ ممّ .. وتسألين مِمّ وأنت تعرفين ؟؟

يبدو ضجر في وجه أختها راسمة اللوحة :

ــ أعرف ماذا ؟؟

ــ قالت زوجة أبي إن ...

بخفة تجد كف أختها تغلق فمها الجاف :

ــ هُصْ ! لا ترددي هذا .. قلت لك ألف مرة لا تصدق هذا الكلام .

في محاولة للتبرير تبعد كف أختها وتؤكد :

ــ ولكن ! ! حمام جارنا وجدوه مقتولاً .

ــ قلت لك إن القطة هي التي فعلت ذلك .

ــ و ...

وانبرى صوت أختها محتداً :

ـ ستقولين وبركة الماء التى جفت ! فأقول لك إن الماء تسرّب فى الرمل.. وستقولين عن القدور التى لا نجدها ! فأؤكد لك أن زوجة أبى تعطيها لأهلها من أجل أن يحضر أبى غيرها .. و.... ستقولين كثيراً مما تسمعين .. وأقول لك إنه هراء .. وأكاذيب .

ـ ولكن ! الأجنحة ! الصوت الظلال !

ـ فى الليل تكثر الخفافيش !

ـ خفافيش ! لكننى ...

تقفز أختها من الفراش مسرعة ومقاطعة :

ـ لكنك عطشانة .. وسأحضر لك .. ستشربين وتنامين ولن تفكرى بعد فيما تقوله هذه المرأة .

تسحب الماء داخل فمها من طرف الغرشة .. تجرعه إلى جوفها محدثة صوتاً أشبه بالركض على أرض أسمنتية . ثم تنطرح على وسادتها و.. عيناها نحو السماء الصافية .. وكلها يرتعش بانتظار الزائرة .

ـ « أم السعف والليف » ساحرة .. تأتى فى الليل عيونها إبر حمراء ... وفمها يتسع للآدمى .. فإن رأت طفلة لم تغف عيونها بعد ، فإنها تحملها إلى مكان بعيد .. وتأكلها .

تزم عينها حين تطرق أذنيها كلمات زوجة أبيها تلك .. تنكمش على نفسها كقطعة من الصوف وضعت بطريق الخطأ فى ماء بارد .. ترتعش .. وتتساءل :

ـ فى الصيف فقط تأتى .. لماذا لا تأتى فى الشتاء حين أكون وأختى فى غرفتنا ؟

آه يا « أم السعف والليف » لو تعلمين كم سرقت منى الليالى .. فلم أذق طعم رقادها ..

والليل المضىء بقمره ونجومه يأتى ويرحل .. وعيناها فتيلا شمعة لا

تنطفىء .. ومتى ابتلج الصبح كثغر طفلة تفرح رغم حزنها .. وتلمح صورة الأم المحفورة على الحائط تدمع وتقترب من الصورة .. تلامسها ببقايا الدموع وتتساءل :

ــ لماذا لا تكونين أمي ؟ وأختبىء في صدرك كهذا الطفل ؟ عصفورة تبحث في غابة الشوك عن الأمان ؟ لماذا لا يكون الليل مثلك حنيا يحيطني بذراعيه كما تفعلين لهذا الطفل .. فيحميني من « أم السعف والليف » ؟

وحين تبعد أناملها عن اللوحة يكون الفحم قد لوثها بلون الليل .. فتذكر الليل هامسة :

ــ لماذا يأتي الليل ؟؟

والليل يأتي كل ليلة .. قمره يأتي .. نجومه الساحرات المغريات كأثداء تتدلى تأتي ... وزوجة أبيها تنام مرتاحة قرب أبيها الذى لا يعلم بسر الساحرة . أو ربما رآها حين كان طفلاً وهو الآن لا يخشاها . عيناها فقط تسهران .. تترقبان ... ثم لا يلبث النهار أن يطلع .. فلا تدرى إن كان السهد قد سامرها أم أن إغفاءة حنوناً غمرتها دون أن تشعر بها .

وتأتى الساحرة أخيراً ..

النسمات تهب باردة رطبة .. تنذر بدخول الشتاء .. بعض الندى الخفيف يتقاطر ... وثمة ضباب يحجب ضوء القمر . وعرائسه المدللات الطامعات بليلة عشق مع الرجل الأنيق .. والصمت يجثو على المكان ضيفاً ثقيلاً يعطى للأذن فرصة أكبر لالتقاط همسة النمل تحت الجدار .. وهى تكره الصمت !

عيناها تتحركان كعيني ذبابة . ترصد كل الأنحاء .. هنا فراش أختها .. وعن يمينها الفراغ ... وفى زاوية السطح الشرقية «كرسى خشبي» جدلت أخشابه الرفيعة بشكل مربعات متساوية طولية ... وعرضية .. به فتحتان من

أعلى .. تنتصب فى إحداهما غرشة الماء .. وفى الثانية « برمة[1] » أكبر .. فى طرف الكرسى ربط حبل تدلّى حاملاً كأساً معدنية يشربون بها الماء ... أسفل الكرسى يرتاح سطلان يستقبلان الماء النازف من البرمة والغرشة وهو فى الصباح ماء للدواجن رغم نقائه وصفائه من التراب الأحمر . فى الناحية الأخرى علبة صفيح مبعوجة هى « بيت الراحه » الذى تستعمله هى وأختها إن فاجأتها الحاجة ! وفى الصباح تحمله أختها لتصبه عند « مدعاب » البيت فيختلط بتراب الشارع .

وهناك باب صغير يفصل مكانهما فى السطح عن مكان والدهما وزوجته . تغلقه المرأة عادة قبل أن تنام . ويفتحه والدها فى الصباح الباكر منسلا إلى الدرج المؤدى إلى حوش البيت .

فى تلك الليلة لا يبيت أبوها فى البيت . فعنده نوبة حراسة فى السوق الكبير ... وزوجة أبيها تلح عليها أن تنام ... لكنها لا تنام .. تذكرها بالساحرة .. فلا تنام ... حتى عندما دخلت المرأة سطحها وأغلقت الباب .. انتبهت عيناها إلى أن الباب لم يغلق تماماً مثل كل ليلة .. بل كان مواربا ينعكس ظل شقه الطويل على أرض السطح .

السكون يطبق على المكان . فلا يثير نفساً لشىء وعيناها تنتقلان فى اتجاهات السطح .. وتصل إلى الدرج الذى يبدو معتماً إلا إذا تحرك الضباب وانزاح عن وجه القمر .. فيبدو وكأنه مغارة عميقة . من هناك .. ينطلق الصوت : خشخشة أجنحة ولهاثاً متعباً . ثم رأساً يطل ! ! ! يا إلهى .. لقد جاءت الساحرة أخيراً ..

وانكمشت .. صارت قطعة من الأسفنج تبللت ثم أهملت فجفت خمد فيها

---

(١) برمة الماء : آنية فخارية لتبريد الماء.

كل شيء إلاّ عينيها المصرتين على رؤية الساحرة !

الجسد القادم من مغارة الدرج يرتفع ... يستطيل . ينتصب أخيراً كاملاً .. ثم يمشي بحذر شديد ... لا يؤكد قوة حدثتها عنها زوجة أبيها ...

تتأمل أكثر... الرأس كرأسها ... الجسد جسد لا يختلف عن جسد والدها .. إلاّ أنه أكثر شباباً ! ! الذراعان فقط مختلفتان ... هما جناحان ! لكن حفيفهما كلما خطت الأقدام خطوة لا يدل على أنهما جناحا طائر ... فهي تعرف حفيف الأجنحة حين يتطاير حمام الجيران ... أو حين يحلق « أبو حقب[1] » مطارداً الحمام .

ممّ تراها مصنوعة أجنحة هذا الساحر ؟؟ تتسع حدقة العين .. هي تريد أن تعرف ... أن تتأكد أن الذى تراه حقيقة ... ها هما الجناحان ... مستطيلات من « السعف » تلتصق بعشوائية على الذراعين . الجسد يمشي . يدنو من الباب الموارب الذى يفصل مابين سطحها وسطح أبيها وزوجته ..

اليد الطويلة تمتد .. تدفع الباب الموارب ... يدخل بخفة .

- يا إلٰهي .. الساحر سيرى زوجة أبي وحيدة وسيسرقها .

لحظة أرادت أن تحس بالفرح . لأن الساحر سيسرق زوجة أبيها .. لكن حناناً غريباً يُثار داخل صدرها .. فيقتل الشعور بالفرح ... ويتمنى ألاّ يصيب المرأة مكروه .. تحرك ساقيها بشجاعة ... وقبل أن تغادر الفراش تنصت لأنفاس أختها تتأكد أنها مستغرقة فى نوم عميق ... وتنفلت إلى الباب الفاصل ... تنصت !

لا تسمع شيئاً .. لا صوت ينبيء بصرير أسنان تمزّق اللحم .. ولا آهة

---

(١) أبو حقب : النسر .

توجع .. ولا حركة مقاومة . تدفع الباب بحذر ! وتقع عيناها على أجنحة السعف ملقاة على الأرض ..

يدور شيء فى رأسها وهى تشاهد الساحر يشارك زوجة أبيها الفراش ...

طنين هادر .. وسؤال يتجرأ ويلح :

ـ ترى ! ما هذه اللعبة الليليّة التى يمارسها الساحر مع زوجة أبيها ؟

مسافرة .. على جناح الأحلام

هم يقولون للسفر خمس فوائد .. لكني هذه المرة ما جئت من أجل فائدة واحدة من فوائده . لقد ترددت كثيراً قبل أن أقرر . وكان هو يلحُّ . وفوائد السفر كثيرة .. لكنها لم تكن على البال ولا على الخاطر . هدف واحد محددّ سأحمل نفسى معه .. وأسافر إلى ذلك البلد البعيد الذى كرهته . وكأنه اليوم يناديني .. كأنه يفتح فمه الأخضر ليستفطنى داخله . وكأننى جنين يعصى على الأم أن تخرجه بطلقة أو طلقتين حاميتين .

وأنا .. أتردد .. ثم أوافق .. ثم أتردد . وللسفر خمس فوائد .. لكنها أبداً ليست على البال ولا على الخاطر .. سفرى معه فقط من أجل أن أراها . أن أطمئن .. أن أثق بأن الرجل لا يكذب على وأنه لم يتصرف بغربته ذات مرة بشكل يسىء إلىّ . أو إليه .. أو إلى علاقتنا معاً .. ألا يكون قد خان .. فالخيانة سكين حاد كفيل بقطع الخيط المتين الذى يربط حبيبين .. وأنا حبيبته . منذ تقدم لخطبتى وحتى هذا اليوم . وبعد مرور سنتين على هذه الخطبة . ونحن لا نزال نعيش حرارة الدقة الأولى . وهو يؤكد لى أنه عرف الكثيرات قبلى .. عابرات سبيل . إما للرفقة اللطيفة البريئة الخالية من كل سقوط أو إذلال أو لمجرد التسلية وتمضية الوقت الذى يطول فى أوقات السفر .. وهذه فائدة أخرى تضاف للفوائد الخمس .. الفراغ بالنسبة للرجل هو ذلك الدافع الذى يغريه

للبحث عن رفيقة .. عصفورة تطير به بين شوارع بلدها وتكون له بمثابة الدليل الذى قد لا يحظى به لو كان ضمن سياحة مجموعة كاملة .. فالمجموعات تعكر الصفو بصخبها أو بمقاطعة الدليل من قبل هذا الذى يمرح .. أو تلك التى تستعجل من أجل الذهاب إلى السوق لشراء الهدايا والتحف . والتعرّف على المصنوعات الوطنية التى تحمل كل منها طابع البلد الذى تحل فيه .

وهو ... زار هذا البلد .. أكثر من مرة . وكثيراً ما تحدث عن عابرات السبيل فيه .. إنما هى .. هل معقول أن تكون عابرة سبيل وهو منذ خطبنى يراسلها . وتراسله ؟ يأتى برسائلها يفتحها أمامى .. ليؤكد أن لا شىء يربطه بها سوى صداقة بريئة . وإعجاب لا أدرى أيهما أكثر .. من طرفها .. أو من طرفه .

لعبت الغيرة بصدرى .. لعب الشك .. وتعاون اللاعبان على حبال الصبر .. والثقة .. بهلوانان لا يهدآن .. مثيران حيناً لحد الانفجار .. ومتأنيان حيناً يعطياتى فرصة للتفكير .. والتدبير .

وهو .. يؤكد .. والسفر له فوائد خمس . لكننى هذه المرة حين ألحّ أن أرافقه لأتعرف على تلك الصديقة . لم تكن إحدى الفوائد الخمس على البال ... ولا على الخاطر .. الهاجس فقط أن أتعرف عليها . أرصد حركاتها .. وحركاته .. نظراتها .. ونظراته .. لفتاتها .. ولفتاته .. فكم من إشارة أنبأت وكم من نظرة كشفت .. وكم من لفتة دلت على طريق الحقيقة .. وأنا قد وافقت أخيراً . رغم أن الأمر بينى وبينه لا يتعدى الخطوبة التى امتدت سنتين . كل أيامها ملتهبة .. وسويعاتها ممتعة . وسهراتها رائعة مليئة بالحبور .. ولم أكن أضيق أبداً بطول المدة .. لقد اقتنعنا معاً أن نُبقى المدّة طويلة ليتعرف كل منا على صاحبه معرفة حقيقية . وليسبر كلانا أغوار الآخر .. يتلمس أرضه .. يضمن له

مساحة غنية . وحياة بعد ذلك فى الأرض هنية ورضية .

و .. ستان .. ونحن حبيبان .. سعيدان .. لا يعكر صفو العلاقة سوى البريد الذى يحمل على جناحيه رسالة مطوية .. أو يأتى برسالة . وهى .. الا تستحى ؟ ألا تفهم بأنه رجل مرتبط بواحدة مثلى ؟ يحدثها دائماً عنى .. وعن حبه الكبير لى ... وعن اقتناعه بى .. وعن مثاليتى التى تصل فى بعض الأحيان حد التعقيد . والتضييق . أيضاً .. هو حدّثها برسالة رأيتها بأم عينى .. عن قناعته التامة باختيارى دون كل فتيات العائلة الكريمة .. والجيران الأفاضل وكل بنات البلد . وحتى عابرات السبيل اللواتى صادفهن فى كل سفراته .. وللسفر فوائد خمس أو ست أو أكثر .. ولكن هذه المرة أنا لا أبحث عن فوائد .. أنا فقط أريد أن أرتاح .. أن أرى الصديقة التى يخصها خاطبى .. وحبيبى دون النساء .. بالاهتمام .

هى ليست بالنسبة له عابرة سبيل .. بل أثيرة إلى روحه .. والاثيرية لا تنبت هكذا ابنة يوم وليلة .. الرجل مهما كان عابثاً غير قادر على إقامة علاقة ودودة بشكل سريع .. الأمر يحتاج لمدة زمنية .. عملية الإقناع . والاقتناع صعبة .. خاصة فى أيامنا هذه التى يفتقر فيها الإنسان لأشياء كثيرة كانت فى الأيام السالفة صفات حلوة تلازمه . الأوضاع تغيرت اليوم .. العالم تسيطر عليه مادّيات تثقله حتى أنها أثقلت الإنسان بما يحمل فحاول التخلص حتى من إنسانيته . يندر أن تجد الصديق عند الضيق .. ويندر أن تجد الأخ فى محنة .. فكيف وجد هو بين هذا الرتل من الناس صديقة فى وقت تبرأت حتى الصداقة من معانيها ؟؟

هل أصدق ؟؟

هو يحبنى .. والثقة التى ولدها لدى وهو يحمل رسائلها .. أو رسائله أحرى

ـها أن تجعلنى فتاة سعيدة .. تنام وتصحو ولا يشغل فكرها أو يؤرق سعادتها شىء .

لكن البهلوانين لا يهدآن .. وهو يؤكد أن لا سبيل لدحر هذين الشيطانين إلاّ بالسفر .. وللسفر فوائد .. ست أو سبع .. لكننى هذه المرة لا أطمع فى فائدة .. ولا بمتعة .. كل مايهمنى أن أتعرف على هذه الصديقة التى اختار حبيبى أن تظل صديقة حتى وهو يربط اسمه باسمى .. ومستقبله بمستقبلى .. بل وحياته الغالية بحياتى التى ما فكرت أن تكون لأحد سواه .. وعليه . فلا بد من الموافقة بعد كل المحاولات التى يحاولها .

وأنا .. مترددة .. خائفة .. رغم غيرتى وشكّى . فإنّ هذه النار أرحم .. فقد تكون بانتظارى نار واقع تحرقنى .. قد أكتشف أن العلاقة غير ماهو واضح لى .. وقد .. والشك فى هذه الحالة بعيداً عن الواقع أرحم .. أن نحس بالنار خير من أن ندخلها .. أن نتصور حريقها خير من أن نلقى بأنفسنا إليها مدعين الشجاعة والبسالة .. فالنار حارقة .. وأنا جربت لمسها الفظيع .. لا تزال آثار الحروق واضحة تشوه بعض مناطق جسدى .. تجعلنى ألعن فاعلها كلما تحسستها . وحين أخبرت خاطبى ذات يوم عن أصلها .. وفصلها .. ومصدرها .. حزن لأجلى .. ومسح على الحرق القديم بحنان ورقة وكأنه يخشى أن يصحو الألم ثانية أو تلسع يده ذكرى حرارته التى ماتت .. يومها وعدنى بإخلاص شع مع عينيه الرائعتين . بأن يعوضنى عن كل ما عانيت .. وأن تمسح يده على جراحى وألا يسبب لى جراحات جديدة .

وهذه الغيرة ! وهذا الشك ! أليسا جراحات تلسع راحتى وتقلق أمنى .. وتعكر صفو المستقبل الذى أحلم وأحلم به كأحلام نبتة صغيرة بيوم ثمرها الوفير ؟؟

هذا التردد كله .. كان خوفاً من مجهول .. خوفاً من أن تكون هناك حقيقة مّا أفقد من أجلها الحبيب الذى أنام كل ليلة على سرير قلبه وأتوسدّ عروقه .. وأستمع إلى عزف نبضه يردد اسمى ويعلن وعده الراسخ بأن أكون وحدى ملكة فيه .

كان لابد من الموافقة .. أن أخطو نحو الحقيقة المجهولة فإما أن أدركها وتهدأ نار قلبي .. أو تطفئنى فينطفئ حبه فى قلبي إلى الأبد . لابد أن أشعل الحقيقة الخامدة .. أو تشعلنى أو نشتعل معاً .. نحترق معاً .. وينتهى كل شيء .

أكدت له موافقتى .. ولمحت فى وجهه تعبيراً راضياً . هل كان انتصاراً ؟ أم فرحاً ؟ أم راحة ؟؟.. لم أحاول تصنيف هذا التعبير ، الأمور لا تصنف الآن . هذا الوجه الذى أراه كل يوم .. سأراه هناك كل لحظة ، وثانية .. سأتابع كل رفة عين ، وكل حركة شفة ، وكل .. وكل .. وكل .. آه كم ستضيع من عمرى لحظات ألاحق بها وجهه .. أو وجهها .. كم سأحرم نفسى متعة النظر إلى السهل ، والبحر والشجر ، والعصافير ، والزهور .. ووجوه الناس التى لا أعرفها ، والتى قد تمتعنى ، وتبهرنى ، فأستشف منها شيئاً ، والأرض التى تمتلئ بتذكارات الخطى ، وأوراق المارة ، وبقايا متاعب النهار ، ودمعات بعض الأطفال الذين تعثّرت أقدامهم فى طرف الرصيف .

ويقولون للسفر فوائد .. ومتعة .. وأية متعة تلك التى سأحسها وأنا أجند نفسى « رجل مباحث » يتابع كل همزة ولمزة ؟

ما أصعب أن يتسرب الشك إلى القلب .. والفكر كم هو معذّب لا يعرف الرحمة ولن يطفئ نار عذابى إلاّ السفر .. وللسفر فوائد ست . أو سبع .. لكنها ليست على بالى ، ولا على خاطرى ، من أجل فائدة واحدة لا تمت لفوائد السفر بصلة .. سأسافر .

كانت العيوم غلالات تتسابق فوق قرص الشمس المندثر تحت كآبة المساء كأنه فى لحظة عشق ترنخى لها عيناه خجلاً .. والأرض قبر يمتد تحتى يلتهم فى داخله الجبال .. والوديان والمساكن التى تعشش فيها رطوبة النهار . وداخل المساكن أناس تتنوع ألوانهم .. وأشكالهم .. وجنسياتهم . وأعمارهم . وتتنوع أحلامهم . وأمانيهم . تتنوع مآسيهم وأحزانهم .

عالم أراه من الأعلى بعيداً .. بعيداً .. صغيراً .. صغيراً وحين تهبط الطائرة سيكبر هذا العالم . يمتد .. وتتلوى طرقاته . وتنشق أرضه عن ألف سر وسر . وأنا ....

سر واحد أريد أن تنشق عنه أرض الشك التى تأكل داخلى .. وتجرش جرش الحصى تحت عجلات المركبات .. فتى يسقط القناع عن وجه الحقيقة ؟؟

ارتجفت .. حين دب خاطر فى ذهنى .. ماذا لو سقطت الطائرة ؟ حادثة يهتز لها العالم .. وتهز أهل الضحايا .. وتمتلئ صفحات الجرائد بالتحليلات والتخمينات .. وينبرى أصحاب شركة الطيران يؤكدون سلامة أجهزة الطائرة . ثم يمضى الحادث يموت من يموت .. وتنساه القلوب .. تنسى حتى أنه لم يجد له قبراً يحتوى جسده على هذه الأرض الواسعة .

صعب أن يتعلق الإنسان ما بين الشك والحقيقة ! ومرعب أن يتعلق ما بين السماء والأرض . ولحظة الرعب جسورة تدق أبواب الذاكرة .. توقظ فيها ألف احتمال .. واحتمال .

ماذا مثلاً ـ لو كان حبيبى شجاعاً فى لحظة وقوع الطائرة . واستل حزام النجاة . وهبط بسلام إلى الأرض دون أن يفكر بى ؟ الروح غالية وعند لحظة الخطر لا يفكر الإنسان إلاّ بنفسه . ولو كنت مثلاً مكانه وملكت الشجاعة ـ التى أفتقدها منذ طفولتى ـ وحركت جسدى الذى بالتأكيد ستشله اللحظة

وسحبت حزام النجاة وفكرت بالهبوط . فإنني بالتأكيد لن أفكر بحبيبي . بل سأنفذ بجلدى . وروحى . من تهلكة لا محال منها . وحين أنجو .. سأبكى .. سأبكي .. حتى تتقرّح عيناى . وسأحمل تأنيب الضمير معى حتى لحظات عمرى الأخيرة . رغم أنه لا مبرر لتأنيب الضمير . فلحظة الموت تفرض الأنانية .

أمّا هو .. حبيبي .. فإن صدَفَ وأنقذ نفسه . وهوى إلى الأرض . كطائر شارد . فماذا سيفعل ؟؟ هل سيفكر بى ؟ هل سيؤنبه ضميره ؟ أو سيحمل نفسه إلى طائرة أخرى ويكمل سفره ـ ذا الفوائد السبع أو الثمانى ـ إلى بلد صديقته ويزف لها بشرى نجاته بأعجوبة بينما يحمل لها خبر موتى المؤسف ؟؟

وهى ؟ هل ستفرح ؟! هل ستغزوها الأمنيات الكبيرة أن تحتل مكانى فى قلبه ؟ وفى حياته كلها التى شاءت الصدف أن تبقى .. وأموت أنا ؟؟

آه من هذا الشك اللاذع المعذّب الذى حرمنى متعة النعاس .. بينما جفنا حبيبي ينطبقان بأمان.وسلام . وهو يسند رأسه إلى ظهر المقعد المريح .

حاورنى شوق .. فهل أحاوره ؟ هل أطلب منه أن يعلمنى الحقيقة الثابتة حتى أواجه الصديقة وأنا على ثقة تامة من أننى لست مخدوعة ! أو ساذجة يحملنى حبيبى إلى واحدة أخرى جمعته وإياها صحبة طويلة ؟

هل ستكون بانتظارنا فى المطار ؟ وكيف ؟؟ هذا يعنى أنه أبرق لها .. كلمها بالهاتف .. دون أن يخبرنى بذلك .. وإن لم تكن بانتظارنا فهل سيتصل بها لحظة الوصول ؟ أم سيخصص الليلة الأولى لنا .. نسهر معاً .. و . قد تتفجر أشواقنا فى لحظة فيقرر أن يتم زواجنا هناك فى الليلة نفسها ؟

ألتفت إليه .. يغط فى نوم عميق عذب .. وجهه وجه هادئ برىء من كل تفكير. أو هواجس. حتى شارباه هادئان كسيْفين لم يمارسا القتل أبداً. مددت

كفى الملبئة بالخواتم .. كم اعترض على هذا الأسر الذى يحرمه متعة العبث بأناملى .. وكم رجانى أن أحررها من ثقل لا مبرر له .. لكننى كنت فى كل مرة أصر على أن تظل خواتمى فى مكانها وقد أصبحت جزءاً من يدى .

ـ هذه دبلة الخطوبة التى تحمل اسمى .

ـ طيب .. لنقل إنها موضة ضرورية .

ـ وهذا خاتم أهداه لى أبى يوم حصلت على الشهادة الثانوية وأنا أعتز به .

ـ لا مبرر للاعتزاز ما دمت قد حصلت بعد ذلك على شهادة جامعية .

ـ وهذا خاتم كان فى بنصر أمى .. أهدته لها جدتى التى ورثته بدورها عن أمها .. التى ورثته عن جدة أمى التى ... وهى تحلفنى أن ...

ـ فهمت . فهمت .. أن يظل بإصبعك بركة .. قد يبقى حتى سابع أو ثامن حفيدة !

ـ أما هذا ...

ـ أعرف حكايته فهو تذكار من معلمة الحساب التى كنت تحبينها وتحبك .. وقد قدمته لك فى عيد ميلاد من أعيادك السنوية .. عجيبة رغم تقديرى لعقلك وفهمك إلا أنك لا تزالين كالطفلة تتعلقين بالتذكارات القديمة .

ـ وهذا ...

ـ حفظت ! هذا خاتم ماسى تخشين عليه من الضياع .. لكننى أذكرك بأنه توجد خزائن وأدراج لها مفاتيح .. صنعت خصيصاً لحفظ الأشياء الثمينة .. ولكنى ...

ـ ولكنّك تغار من خواتمى هذه ..

ـ تسمينها غيرة .. ولكنها فى الحقيقة رفض لامتداد عصر الحريم .

* * *

وامتد كفي يحمل آسريه .. مسحت على كفه برقة . ارتعش . وانفتحت عيناه انفتاحة وردة شهية تسأل عما أريد . وفى اللحظة نفسها تسألان عن الزمن .. كم مضى ؟ وكم بقى !

قلت :

ـ هل ستكون صديقتك فى المطار ؟

ابتسم ابتسامة كبيرة وكأنه يحذرنى أنه يفهمنى :

ـ لا ..

ـ هل ستتصل بها بمجرد وصولنا إلى الفندق ؟

قال بصدق أليف إلى روحى :

ـ كما تشائين .

ـ لا .. كما تشاء أنت .

قلت هذا وفى نيتى أن أستشف مدى اهتمامه بها ولهفته على رؤيتها ولأؤكد له أننى لا أحمل لها أى نوع من أنواع العداء . ولكنى فى داخلى كنت أخشى الصدمة إن جاء رده محققاً لهذا الخوف الذى يعاركنى . لكنه ـ وكأنه قصد هذا ـ أكد لى أن الليلة هذه ستكون لنا نحن الاثنين فقط . والصباح يوم آخر ولا مانع من أن تشاركنا فيه الصديقة .

جاءت كلماته دفقة باردة تذيب حرارة الهاجس اللعين . وفى تلك اللحظة فقط شعرت بأن عينى القلقتين قد ذابتا .. واشتهتا نوماً دافئاً يختصر المسافة ما بين السماء والأرض .

* * *

فى بهو الفندق !

وحدى أنتظر ..

تعمدت أن أكون بكامل زينتى . قبل أن أمر على غرفته ، وأطرق بابها .
حين فتح كان وجهه مغطى بالرغوة ، وماكينة الحلاقة بين أصابعه تستعد لابتلاع شعر ذقنه الذى نبت مسافة السفر الطويل .

رحب بى .. بينما كنت غير مرحبة بهذا الاستعداد الذى أثار لدى غيرة طفحت حتى وجهى . لماذا يحلق ذقنه ؟! هل يرغب فى أن تراه نظيفاً ، ناعماً أنيقاً ؟ وماذا يهمه فى ذلك ؟ أو... ماذا يهمها هى بالذات ؟؟

ترك الماكينة على طرف المغسلة .. واقترب من وجهى .. حضنه بين كفيه الرطبتين .. وتصورت كم يكون جميلاً لو كانت له ذقن بيضاء .

اقترب من وجهى ليقبله .. لكننى أبعدته :

ـ حاذر .. ستلطخ وجهى بالرغوة :

تنبه .. وضحك ، وسارع يسحب المنشفة . كنا لا نزال عند مدخل الباب الذى أغلقه بعد دخولى . نقف أمام باب الحمّام ، مسح الرغوة بعنف . ورغم فرحى بما فعل إلا أننى ذكرته :

ـ وذقنك ؟؟

بكل بساطة أجاب :

ـ لن أحلقها .. ليس الأمر مهمّا ..

ـ إذن ! لماذا بدأت ؟؟

ـ وجدت نفسى وحدى .. قلت أتسلى بذقنى .. هل من العيب أن أتسلى بذقنى ؟؟

ـ لا ..

واقتربت منه :

ـ هل أنا جميلة ؟؟

وكنت أعرف أنني عادية الجمال ..

ـ أنت فقط .. حبيبتى .

ولمع انبهار شهى فى وجهه كانبهار النقطة الآتية من السماء .. وانشقت فى شفتيه أشواق كانشقاق الوردة حين تصرخ فيها نشوة البلوغ .. وانبلج صبح من عينيه ، فرأيت أمامى مهرجان الوان يطل .. حاملاً فرحه ، وزغاريده والتقت اليد باليد .. والحت فى رأسى أنشودة موسيقاها سؤال يتردد .. متى يلتصق الخد بالخد وحين أقترب أحسسته جمراً ملتهباً .. ضمنى إليه كقطة أليفة .. فذبحنى سعير شوق ، وتفتحت أبواب حلم رحب .. وأنا .. أغط بين يديه ، وقد تكومت كل روحى فى نقطة واحدة يهرسها بين شفتيه .

* * *

وحدى ..

أجلس فى بهو الفندق .. أنتظرها .. أنا التى أصررت على أن تعرف بوصولنا .. منذ اللحظة الأولى .. فهذه الليلة لن تكون هادئة إن لم أرها . لن يكون بمقدورى أن أعيشها لحظة بلحظة .. كيف لى أن أفرح ؟ وأقطع الشوارع المبللة بعرق البشر ؟ وأن أسهر فى ناد خافت الأضواء مثير للتقارب .. والعناق .. بينما ذهنى مشغول .. مشغول ... مشغول ..

ستأتى الآن ! سأراها وأطمئن .. ربما تعمد أن القاها قبله .. قلت له :

ـ أنا لا أعرفها .. فكيف سأتعرف على وجهها بين عشرات الوجوه ؟

أكد لى وهو يبعد خصلة شعر التصقت بخدّى :

ـ أنا متأكد أنك ستعرفينها .

ما سر اقتناعاته هذه ؟ هل يعرفنى ذكية لهذا الحد ؟ أم أنه واثق من أننى أعرف اختياراته ؟ أم أنها هى باهرة إلى الحد الذى سيلفت نظرى ويجعلنى أغادر

مقعدى لاهثة إليها ، أعرّفها بنفسى فتعرفنى ؟؟

هذا الرجل يحيّرنى بقدر ما أحبه ، وهذا الموقف الذى وضعنى فيه موقف حرج لا أحسد عليه . لكنه ما دفعنى إليه إلا ليريحنى .. ليعطينى فرصة اكتشاف أنا بحاجة لها .. وحدى وليس معه .

ما زلت أحمل رعشة الذوبان الذى سبحت فيه قبل أن أهبط الطوابق الستة ، وأنتظر فى هذا البهو الرخامىّ المليء بالبشر .. وجوه .. وجوه .. وجوه .. . وأجساد ... كلها وجوه تعيش .. تأكل .. تنام .. تعشق .. وتضاجع .. وتنجب .. لتزدحم هذه الكرة الأرضية ببشر يتشرد بعضهم .. ويموت بعضهم .. ويتقاتل البعض مع البعض .. ويأكل البعض بعضه الآخر .. ويكثر المتسولون ، والجياع .. وتتخم فئة على حساب أخرى .. وتطمئن فئة على حساب قلق الفئة الأخرى .. وتنمو حياة على قبور ساكنة . عالم متحرك .. لا يدع الفرصة لقدم أن تمتدّ أكثر من خطواتها .. وزحام عند مكتب الاستعلامات وعند شباك المكتبة المنزوية فى ركن .. وفى البار الذى يفرغ معسوله فى أجواف الظمأى .. وعند المصعد الذى لا يأتى إلاّ إذا نفد الصبر بالكثيرين وتذكروا أن هناك درجات سلم مئوية العدد . فيفضلون لهاث السلم على وقفة انتظار .. عالم يستعجل اللحظة .. يريد أن يعيش حياته دقيقة بدقيقة .. عمقها .. طولها .. عرضها ..

وأنا ...

على المقعد العريض .. أتابع الوجوه النسائية التى تدلف .

هذه واحدة .. ربما تكون هى .. إنها تتلفت .. بلا شك هى تبحث عن وجهه .. عن صديقها الذى تراسله وهو مرتبط بى .. ويحبنى .. واختارنى من بين عشرات البنات .

طويلة .. فارعة .. نحيلة الساقين .. عنقها طويل يمتد كعنق هدهد .. ومن شحمتيْ أذنيها يتدلى قرط على شكل ثعبان .

لا .. ليست هى ..

لماذا أكدت لنفسى هذا ؟؟ وكيف عرفت أنها ليست هى حتى قبل أن تلتق برجل ملتح وتتشابك يداهما ؟

حبيبى لا يفضل النحيلات .. أنا .. وهو فى حوار دائم حول عملية الحميه التى أتبعها . فهو يحب الاكتناز .. خاصة فى الساقين .. وهذه ذات ساقين نحيلتين !

هل حقا يحث فى الصديقة عن ساقين جميلتين ؟؟

لا ..

هو لايفكر بهذا الشكل التافه .. حين اختارنى لم يقس مسافاتى .. كان اللقاء أعلى من كل مساحة الجسد .. حبيبى يعرف كيف يختار . ربما هذه ! !

دخلت تقسم شعرها قسمين ، ينتفش كل قسم إلى ناحية كأنه فى حالة غضب من رفيقه . وقد ذكرنى وجهها بوجوه الساحرات المرسومات فى كتب القصص المدرسية .. قصيرة .. ملابسها تصرخ مستغيثة من لحم تكوّم فى الأمام وفى الخلف .. وقد ضيّق عليها سبل الحركة .. فبدا بروفيل جسدها وكأنه علامة سؤال ذات زائدة . دارت فى البهو .. مرة .. مرتين .. عيناها تتنقلان من وجه لوجه .. حتى عندما اصطدمتا بوجهى .. تحركتا بلا مبالاة إلى الناحية الأخرى . ليست هى .. بالتأكيد .. ليست هى .. لوكانت هى لعرفتنى .. لا شك أنها ستكون ذكية .. وإلا لما صادقها ، فحبيبى يكره النساء الغبيات . لوكانت هى لفهمت أننى فتاة أجلس وحدى ويبدو على قلق الانتظار .

وابتعدت .. وهى تعانق ذراع امرأة تكبرها بكثير ويتكوم شعرها فى الخلف على شكل كعكة مصوعة بالزيت !

نقلت بصرى إلى مكتب الاستعلامات .. وقد تأتى وتقف هناك .. فتتصل بهاتف غرفتى .. أو .. غرفته . وسيردّ عليها .. ثم يهرول إلى البهو .. سيراها قبلى .. وتضيع على فرصة التقاط الشارة الأولى عن أول لقاء .

ما الذى جعلنى أضع نفسى فى هذا الموضع البائس ؟ احس أن القلق قد أكل نصف حيويتى .. وقد جئت فارة من ضغط العمل .. وضغط الشك والغيرة . وللسفر فوائد . تسع أو عشر .. وأنا على العموم ما جئت إلا من أجل فائدة محدّدة .. اريد أن أعرف .. أن أتأكد .. أن أدخل جنة الزواج وأنا مؤمنة كل الإيمان بأن الجنة ما وجدت إلاّ من أجل كل اثنين يسلكان الطريق السليم حين يقيمان علاقة ودودة .. ويمتزجان بحب أساسه الإيثار .. وربّانه العقل .

وعقلى شارد ! .. متى تأتى ؟؟ تأخرت خمس دقائق .. رصدت خلالها أكثر من خمسين وجهاً .. لم أستطع أن أثبت واحداً منها فى ذهنى ، فذهنى لا يحمل إلاّ أوصافها التى أعطاها لى كما أرادها هو .. لكن الرجل أحياناً لا يكون قادراً على إعطاء الوصف الدقيق .. ذلك أن نظرته للمرأة تختلف عن نظرة المرأة لها .. فما قد يلفت نظره ويركز عليه .. يحتمل ألاّ يثير عند المرأة شيئاً .. فرق كبير بين نظرة الرجل للمرأة .. ونظرة المرأة للمرأة .. تماماً كالفرق ما بين نظرة رجل .. ورجل للمرأة .. هناك رجل يهمه الغلاف الخارجى . الزخرف الذى تثيره ملامح .. وعطر .. ولباس .. بينا آخر يبحث عن البطانة داخل الغلاف .. فجمال المرأة فى نظره يكمن فى عمقها .. فى سريّتها .. والرجل دائماً يصف المرأة حسبا يتعامل معها .. فالرجل الذى يفضل المرأة «الانترناشنال» التى تبيح نفسها من أول لحظة سيختلف بالطبع وصفه عن وصف الرجل الذى

يفضلها صعبة .. وذات كبرياء يعجز كل رجال العالم عن كسر طوقه .

أما المرأة فهى حين تنظر لامرأة سواها .. إنما يهمها بالدرجة الأولى أن تتأكد إن كانت أجمل منها .. وأكثر منها أناقة .. وتتأمل ذوقها .. ملابسها .. عطرها .. تسريحتها .. مجوهراتها .

يدى تداعب يدى .. أنزع الخواتم واحداً واحداً .. فتنسل بسرعة وكأنها تريد أن تحقق لخاطبي أمنيته .. أنظر إليها .. و .. أبدل أماكنها .. لا يرضينى التبديل .. فأعيدها آمنة .. وأحس بها تنزلق إلى مكانها وكأن شوقها قد اعترم لمجرد أن أنتقل لحظة .. أو .. كأنها ترضينى أنا هذه المرة . وتؤكد لى أنها مخلصة ليدى إلى الأبد .. خاتم واحد ظل مكانه لم يتبدل .. الدبلة .. ظلت لاصقة بلحم الأصبع التصاق المشيمة بالرحم .

لماذا يضيق بهذه الخواتم ؟ نبهنى أكثر من مرة ـ كلما حاول عناق كفى اصطدمت أصابعه بها . هل هذا حقاً مثير للضيق ؟

وأنا أضيق .. أضيق بجلستى .. هبط بى المقعد الاسفنجى حتى تصورت أنه سيتساوى بالأرض وعيناى كعينى ذبابة تتحركان بسرعة هنا .. و .. هناك .. ها هى واحدة .. تحمل بيدها علبة ملفوفة بورق أنيق محلى بشريط أخضر .. ويبدو أنها هدية لشخص ما . الفتاة جميلة .. يبدو أنها خفيفة الظل .. ثغرها باسم دون عناء .. أو إصرار .. وعيناها واسعتان صبغت جفنها الأعلى بلون أخضر كلون الشريط .

تتلفت .. هل تكون هى ؟؟ ربما جاءت تحمل لى هدية التعارف الأولى .. أنا نفسى أحرص على هذا التقليد حين أقوم بزيارة أولى لعائلة .. أو زميلة .. وهذا شيء يعجب خاطبي .. وهو يثنى عليه دائماً . وهذه تحمل هدية .. ربما أحب فيها الشيء نفسه . إذن .. لم لا تبحث عنى ؟ لم لا تنقل بصرها بين عباد

الله الغاطسين فى المقاعد ينتشر فوقهم دخان السيجار والسجائر ويشكل طبقة غبراء بلون الرماد .

لن أتحرك ..

لن أتصدق عليها بلهفتى .. ولا يجب أن أسعى إليها .. هى التى يجب أن تبحث .. وهى التى يفترض أن تسعى إلىّ .. يجب أن تعرف منذ الوهلة الأولى أننى أنا الأهم فى حياة الرجل الذى هو صديقها وعليها أن تكون بشوق للتعرف علىّ .. لا أنا . ولكننى .. ما جئت إلى هذا البلد إلاّ من أجل أن أتعرف عليها .. أن أطمئن .. أن .. وأن .. وأن .. فلم أضحك على نفسى .. وأتحرق فى مقعدى الذاوى تحتى ، وقد بدأ مغص شديد يعبث بأمعائى .. ودقات قلبى تسرع .. وتسرع .. فى نبضاتها .. بانتظار اللحظة الحاسمة .

ينبعث صوت طفل من بين الأصوات .. هكذا هم الأطفال دائماً .. رغم صغر سنهم ، إلاّ أن صرخة واحدة منهم تكفى لإيقاظ جيش نسى واجبه الوطنى .. ونام على الحدود .. جاء صوته عالياً هاتفاً كراية تعلن كبرياءها لحظة التحية .. أو النصر .. ركض نحو المرأة التى تحمل الهدية ! فتحت ذراعيها .. وحضنته بلهفة تمردت على كل ما تحمله .. حقيبتها والهدية .. فتساقطت .. وبادر أولاد الحلال من الرجال ... كل يحاول أن يثبت أدبه .. وذوقه ليرفع الأشياء .. فقد ينال بسمة رضا .. تكفيه لأن يفاخر بها أمام الغير.

إذن ! ليست هى .. وتبع عناق الطفل عناق سيدة ترتدى ملابس سوداء وقد انفجرت ببكاء مفاجىء وهى تعانق المرأة الزائرة . ثم تشدّ على يد الصبى الذى حمل الهدية .. وتوجهوا إلى باب الخروج .

وأنا .. متى أخرج من هذا الموقف . بدأت أضيق ! ووجودى فى هذا المقعد السليب لا مبرر له . خلعت نفسى منه بصعوبة .. توجهت لمكتب

الاستعلامات ، ورفعت الهاتف .. طلبت رقم غرفة خاطبي .. أعلنت له رفضي لهذا الانتظار فأكد أنه سينزل حالاً .

حين استدرت بعد أن علقت السماعة على صدر أمها الجهاز . تصافح وجهي بوجه أليف .. أعرفه ، أعرفه جيداً .. وتلاقت بسمتان .. وتزاوجت فرحتان .. وتهللت تحيتان ، وشعت نجمتان . لامعتان .. هتفت وسبابتي تشير إليها :

ـ أنت ...

وكانت تسبقني بالسؤال ذاته :

ـ أنتِ ....

وتعانقنا .. لا أدري كيف؟ ولماذا !

كان لها وجه صبياني .. فك بارز صغير . وعيناها بريئتان كعيني طفل لم يؤذ عصفوراً .. ولم يخربش على جدران بيتهم الجديد ..

حين تباعدنا استعرضتها في ثانية ...

عادية الطول .. ممتلئة بعض الشيء .. ولكن في تناسق يدل على أنها تمارس رياضة ما ! ترتدي بلوزة رمادية مخططة بخيوط حمراء رفيعة .. وتنورة حمراء لها فتحة صغيرة في جانبها الأيمن .. ومن صدرها تتدلى سلسلة ذهبية رفيعة كهمسة خجولة .

لم أحاول أن أسألها كيف عرفتني ؟ لانني أنا أيضاً عرفتها .. نفس أوصافها التي تركزت في ذهني .. ولابد أن أوصافي كذلك صحيحة .. وواضحة .

قبل أن نجلس كان خاطبي يصل إلينا .. وأحسست بمزيج من السعادة . والهدوء .. وجلسنا ثلاثتنا . لقاء .. كأنه لم يكن الأول .. وتآلف يصعب على من يراه أن يصدق بأنه ابن لحظته .. كأن السنين قد ربطت بيننا ... وأن خلية

من الأحداث قد مرت فى تلك السنوات البعيدة فحققت هذه الألفة .

لا أدرى كيف مشينا ! وكيف جلسنا على المقاعد الذائبة .. لكننى عجبت من نفسى .. لماذا لم أنظر لوجه حبيبى ووجهها وهما يتصافحان ؟ ألم أكن قد قررت أن أكون رجل مباحث وأرصد الحركة . واللمسة ؟ هل انتهى الشك وذابت الغيرة بمجرد أن رأيتها ؟ ولماذا عانيت كل ما عانيته وأنا على يقين من أنه يحبنى .. وأننى شمعة مضيئة فى عينيه .. ووردة لا تطالها سن اليأس ، أتربع عروساً فى قلبه .

ويقولون للسفر فوائد .. عشر أو عشرون . وأنا لا تهمنى هذه الفوائد .. فقد جئت من أجل شيء محدد ... من أجل حقيقة أكتشفها . وها هى الآن أمامى .. أراها .. وألمسها ملمس اليد . صديقة حبيبى .. وقد أصبحت منذ الوهلة الأولى صديقتى ...

ها هو الشك يتبدد .. وها هى السحابة السوداء تنزع نفسها من بيت أفكارى .. وتترك المكان صافياً .. عذباً كيوم ربيعى ..

لماذا عذبت نفسى كل تلك المدة .. رغم حبى له . وثقتى الصادقة بحبه لى ؟ ولماذا تصورت أنه لا يمكن أن تمتد جسور صداقة بين رجل وامرأة إلا وأن يكون للشيطان دوره فى بناء جسر من جسورها !

هذه الصديقة التى اثارت الاطمئنان فى نفسى منذ الوهلة الأولى .. هل أكره أن تنال حقاً إنسانياً ؟ أن يكون لها أصدقاء حتى وإن كان حبيبى واحداً منهم ؟؟

يَرِقَ سرور عجيب فى داخلى .. عابثنى وأثار النشاط فى كل كيانى .. فأحسست لحظتها فقط بقيمة السفر .. وفوائده الألف التى أضيفت لها اليوم فائدة اكتشاف جديدة .

وعلى شفتى المبتهجتين التمعت الدعوة التى وجهتها :

ـ ألن نخرج ؟ الجو رائع .. وجميل ..

وفى داخلى كنت أؤكد بأن الحياة كلها أجمل .. وأن الراحة سبيلنا لتذوق هذا الجمال ..

وقفنا ..

كان خاطبى فى الوسط .. فتح كفيه .. وبسهولة كان كفه يرتاح فى كف الصديقة الذى لم يكن يحمل سوى بصماته ، بينما لم تكن الطريق سهلة إلى كفى المليء بالخواتم ..

سحبت كفى . اندهش .. لكنه عاد وابتسم ابتسامة رفرفت أجنحتها بفرح وهو يرانى أنزع الخواتم واحداً .. بعد الآخر . ولم أبق سوى الدبلة التى لن تترك مكانها إلى الأبد ..

وكانت نظرة من عينيه الحانيتين تؤكد لى ذلك .

فهرس

رقم الإيداع ٨٧/٢١٥٤
الترقيم الدولي ٩٧٧ - ١٤٨ - ٠٧٤ - ٧ ٠

مطابع الشروق
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٥٧٨ - ٧٧٤٨١٤ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE